العصبة الأندلسية [1]

د. عمر الدقاق

- ٢ -

سمات الاعضاء :

كان طبيعياً ان تضم العصبة الأندلسية في سان باولو عدداً وفيراً من الاعضاء في بيئة تكاثر فيها الادباء والشعراء. وعندما تأسست تلك الجماعة الأدبية كان قوامها احد عشر عضواً وهم الذين حضروا الجلسة الاولى ، ولم تمض اسابيع حتى قارب عددهم العشرين.

(١) نشر القسم الأول من هذا البحث في العدد ٨٠ (تشرين الأول ١٩٦٨) من المعرفة .

وقد بلغ من ضمته العصبة الاندلسية من الاعضاء خلال عقدين من السنين تسعة وعشرين عضواً بينهم سيدة واحدة وهم اسكندر كرباج ، الياس فرحات ، انطوان سليم سعد ، انيس الراسي ، توفيق ضعون ، توفيق قربان ، جبران سعادة ، جورج انطون الكفوري ، جورج حسون ، جورج الخوري كرم ، جورج لبان ، حبيب مسعود ، حسني غراب ، داود شكور ، رشيد سليم الخوري (القروي) ، رياض معلوف ، سلمى صايغ ، شفيق معلوف ، شكر الله الجر ، عقل الجر ، فؤاد نمر ، قيصر الخوري (المدني) ، ميشال معلوف ، نجيب يعقوب ، نصر سمعان ، نظير زيتون ، نعمة قازان ، يوسف البعيني ، يوسف أسعد غانم .

ولكن هؤلاء الأعضاء لم يقدر لهم أن يتلاقوا جميعاً في احضان العصبة الاندلسية فبعضهم آثر الانسحاب بعد حين ، وبعضهم اخترمته المنية ، وفي مقابل ذلك ثمة أعضاء آخرون كانوا ينتسبون وهكذا ... فالذين توفوا ستة عشر عضواً ، وهم : ميشال معلوف ، جورج الخوري كرم ، جورج انطون الكفوري ، عقل الجر ، انيس الراسي ، انطون سليم سعد ، يوسف البعيني ، اسكندر كرباج ، حسني غراب ، داود شكور ، سلمى صايغ ، نجيب يعقوب ، يوسف اسعد غانم ، جورج حسون ، نصر سمعان ، نظير زيتون . والذين انسحبوا بعد حين من عضوية العصبة الاندلسية ثلاثة ، وهم : نعمة قازان ، الياس فرحات ، توفيق قربان . والذين قدرت لهم العودة الى وطنهم خمسة ، وهم : رياض معلوف ، جورج لبان ، نظير زيتون ، الشاعر القروي ، شكر الله الجر .

اما الشعراء فيبلغ عددهم اثني عشر شاعراً ، وهم : رشيد سليم الخوري (الشاعر القروي) ، وقيصر سليم الخوري (الشاعر المدني) وهما اخوان ،

وشفيق معلوف ، ورياض معلوف وهما ايضاً اخوان ، وعقل الجر ، وشكر الله الجر وهما ايضاً اخوان ، والياس فرحات ، وحسني غراب ، وميشال معلوف ، ونصر سمعان ، ونعمة قازان ، وجبران سعادة .

واما سائر الاعضاء فاكثرهم كان كاتباً يمارس فن المقالة أو القصة أو النقد مثل حبيب مسعود ، وتوفيق ضعون ، وجورج حسون ، واسكندر كرباج ، ويوسف البعيني ، وسلمى صايغ . وقليل منهم كان يمارس البحث والتأليف مثل فؤاد نمر ، وتوفيق قربان ، وكان بينهم باحث في العلوم الكيماوية هو جورج لبان ، ولم يكن للباقين نتاج ذو بال .

ان هذه الكثرة من الاعضاء الذين ضمتهم العصبة الاندلسية تعني ان مجموعة كبرى ذات شأن في الحياة الادبية انضوت تحت لواء واحد ، ولم يسبق لجماعة ادبية اخرى في الوطن او المهجر ان ضمت مثل هذا العدد من الادباء .

على ان هذه الكثرة قد استتبعت - بطبيعة الحال - تعدداً في المشارب واختلافاً في مستوى الثقافة وتبايناً في الأمزجة ، وتباعداً في الميول والمذاهب . ثمة شعراء كبـــار امتازوا بمواهبهم مثل القروي وفرحات وشفيق معلوف ، وآخرون لم يكن لهم من ذلك سوى حبهم للأدب وتقديرهم لذويه مثل انطون سليم سعد ونجيب يعقوب...[1] كما ان هنالك المتخرجين في الجامعات مثل فؤاد

(١) كان الاول تاجراً يميل الى الأدب اما الثاني فهو تاجر « ملتصق » بالعصبة كما نعته لي الشاعر القروي في القاهرة خلال مقابلة بينه وبيني بتاريخ ٧/٢/١٩٦١ . ولهذه الظاهرة مثيل عند الرابطة القلمية التي ضمت عمالقة الى جانب أقزام فلم يعرف عن الياس عطا الله انه كتب حرفـــاً طوال وجوده في الرابطة كما لم يكن لوديع باحوط سوى مقالة واحدة .

غر وتوفيق قربان وجورج لبان .. والذين لم يكادوا يتمون دراستهم الابتدائية مثل اسكندر كرباج والياس فرحات ونصر سمعان ..

ولم تكن الفوارق الثقافية بارزة في شعراء العصبة بروزها في سائر الاعضاء ، فالشعر قوامه الموهبة الفطرية بالدرجة الاولى ، وقد أوتي اكثر هؤلاء الشعراء تلك الموهبة ، فتعهدوها بالدربة والمران حتى استكملوا ثقافتهم ، ودانت لهم صناعة الشعر .

اما الأمزجة فقد كانت متباينة لدى بعض الاعضاء الى حد كبير فنهم من اتسم باعتدال الطبع والرصانة والأناة مثل شفيق معلوف وحبيب مسعود ونصر سمعان، ومنهم من عرف بحرارة الطبع وحدة المزاج وسرعة الهياج كالياس فرحات وتوفيق ضعون ونعمة قازان .

واما من حيث العقيدة الدينية فكان « هذا يحارب رجال الدين ، وذاك يتبرك بأذيالهم [1] » .

على ان هذا التباين بين عدد من اعضاء جماعة واحدة كان يسيراً أمره وله نظير في جماعات اخرى كالرابطة القلمية وان لم يبلغ هذا المدى ، ولكن ما عرف به اخوان العصبة الاندلسية من اختلاف في النازع الوطنية والميول السياسية كان ظاهرة بارزة بينهم .. وقد صور نظير زيتون هذه الحال في قوله[2] : « كانت تتنازع اعضاء العصبة الاندلسية تيارات سياسية متناوئة . كان بينهم العربي الاستقلالي المتطرف ، وكان بينهم المتقوقع ذو الاقليمية الضيقة ، وكان بينهم المعتدل ،

(١) جورج صيدح : أدبنا وأدباؤنا في المهاجر الاميركية ٣١٨ .
(٢) من رسالة دهبها على ما استفسرت عنه ، بتاريخ ٦ أيار ١٩٦٥ .

والمهادن ايضاً .. » ثم يستدرك بقوله « ولكنهم جميعاً كانوا يطرحون نزعاتهم السياسية والاقليمية والمذهبية على ابواب العصبة وكان الأدب العربي صهر نزواتهم. وان المتفينقين أنفسهم كانوا يسابقون سواهم في حب العربية والتغني بالتراث العربي العظيم مما تفرقه السياسة يجمعه الأدب . »

وهذا قول يعتد به أمين العصبة الاندلسية ، ولكنه يجمّل الصورة من بعيد دون أن يأتي على بعض تفصيلاتها ، فمع ان العصبة أفلحت الى حد بعيد في ابعاد عناصر الخلاف بين اعضائها أو في كتبها على الأقل ، الا أن بوادر الخلاف كانت تطل برأسها من حين الى آخر وتأبى الا الظهور، ولم يكن « طرح النزعات السياسية على ابواب العصبة » بهذا اليسر الذي تطرح به الثياب . فقد حدث ان الياس فرحات بعث بقصيدة من الشعر الوطني الى رئيس تحرير « العصبة » بغية نشرها ، وكانت تنطوي على تنديد بموقف شائن وقفه البطريرك الماروني في لبنان آنذاك من قضية بلاده حين أبدى عطفه على الحركة الصهيونية في فلسطين وأعلن تمسكه بأذيال فرنسة ، ولكن حبيب مسعود أبى ان ينشر تلك الابيات لانها تنافي دستور العصبة الذي ينص على عدم المساس بشؤون السياسة والدين . وكانت ملاسنة تبعها انسحاب الشاعر من عضوية العصبة الاندلسية . وقد حدث لعضو آخر هو توفيق قربان مايشبه ذلك ، فانسحب ايضاً لسبب يتصل بنزعته الوطنية بعد ان اعلن عصبته على ما اعتبره قيدا في العصبة[1] وقد آثر عضو آخر الانسحاب بعد حين هو نعمة قازان لاسباب أخرى .

---

(١) يذكر توفيق ضعون في كتابه ذكرى الهجرة ص ١٩٥ انه قال معتذراً بنفسه اثر انسحابه « .. لكي لا اكون الحمار الثامن » اشارة الى ترتيبه في موعد انتسابه .

اما الشاعر القروي ، شاعر الوطنية والعروبة ، فقد كان استمرار بقائه في العصبة الاندلسية رهنا بكبت شعوره وضبط نفسه ، وكان جلياً انه غير راض كل الرضى [1] عن استبعاد الشعر الوطني من مضمار نتاج العصبة الاندلسية ، كان كالطير الحبيس ، وشعره في ذلك يكاد لا يختلف من حيث مضمونه عن شعر رفيقه فرلحات . فالمتصفح لاعداد مجلة « العصبة » لايقع للقروي الا على شعر وجداني أو شعر متصل بالمناسبات الاجتماعية ، الا ماورد عرضاً او استطراداً ، وهذا مايفسر وجود قصائده الوطنية في مجلات اخرى في البرازيل وفي الارجنتين وكالشرق والمواهب والمناهل ، وذلك ابان صدور « العصبة » .

ثم لم تلبث ان ارتفعت بعض الاصوات تشكو من هذا التضيق ، فقد انتقد توفيق ضعون رئيس تحرير العصبة برفق وقال [2] : « انه غالى في حرصه على دستور العصبة حتى كاد يبلغ به طور التطير ، وبالغ في الحيطة والحذر الى حد اغفال ما هو من لباب الادب . لقد احسنت العصبة بتحظيرها البحث في السياسة لان هذه ليست من المبادىء الثابتة بل هي قابلة للتقلب والتلون . ولكننانخطىء كثيراً اذا نحن حسبناها قد حظرت بذلك البحث في الوطنيـــة التي ترتكز على مبدأ ثابت غير قابل التحول ، الادب الصحيح قائم على اساس استغلال الفرد وانعتاقه . . أفيعقل اذن ان يرضى للاوطان ما لا يرضاه للفرد من تقييد واستعباد؟ فللأديب ان يبشر بالوطن الحر ويثور على الظلم والاستعباد مادام قلمه منزهاً عن التعصبات الدينية والاقليمية مترفعاً عن ايثار اجنبي على آخر . . »

---

(١) ألمح لي الشاعر في مقابلة بينه وبيني في القاهرة بتاريخ ١٩٦١/٢/٧ عن مثل هذا التبرم خلال وجوده في العصبة الاندلسية .

(٢) مجلة « العصبة » حزيران ١٩٣٨ ص ٥٤٥ .

ولا ريب في أنه دفاع حار يمثل وجه لفيف من اعضاء العصبة الاندلسية، ومحاولة مخلصة للتمييز بين الوطنية وبين السياسة . ولعل المعضلة تكمن هنا اذ ليست الحدود واضحة دوماً بين الوطنية وبين السياسة . وتحديد طبيعة كل منها كثيراً ما يتوقف على تقدير الافراد تبعاً لاتجاههم ، بل ان الامر ليتعدى ذلك الى مفهوم الادب نفسه .

ولا يكاد يمر عام على تأسيس العصبة الاندلسية حتى يطلع علينا شكر الله الجر بمقالة في مجلة « الاندلس الجديدة » ينتقد فيها قصورها عن خلق ادب جديد ويسألها بقوله [1] « ماهو الحدث الذي احدثته العصبةالعزيزة حتى الآن في الادب العربي في المهجر .؟»

على ان الامر لم يقتصر على انتقاد عدد من اعضـــاء العصبة الاندلسية لدستور جماعتهم او خطة مجلتهم ، ولكنه اخذ يتناول الافراد فيا بينهم تبعاً لتباين مفاهيمهم الفنية . فقد كان نعمة قازان « حامل لواء المعارضة للشاعر القروي ، لا يغفر له تسامحه الديني وايثاره سيف محمد على انجيل يسوع » [2] أما نعمةقازان نفسه فقد كان عرضاً لسهام زملائه في العصبة الاندلسية منذ الفترة الاولى بسبب مفهومه الخاص للفن وآرائه غير المألوفة في الادب ، وهذا ما قصر امد بقائه بينهم . ثم هبت العاصفة النقدية عليه حين اصدر مطولته الشعرية المعروفة بكتابه «معلقة الارز » فقد تناولها شكر الله الجر بعنف في سلسلة من المقالات [3] . كما انتقدها حبيب مسعود معلناً عدم رضاه عنها . حتى ان توفيق ضعون الذي دبج المعلقة

---

(١) مجلة « الاندلس الجديدة » كانون الاول ١٩٣٣ .

(٢) جورج صيدح : ادبنا وأدباؤنا في المهاجر الاميركية ٤١٢ .

(٣) انظر مجلة الاندلس الجديدة ، كانون الثاني ، شباط ١٩٣٩ .

مقدمتها لم يحجم عن انتقادها متذرعاً بمبدأ الصراحة . كل هذا فضلاً عمن جرّحها من خارج العصبة . وهذا الجو المحموم دعا محمود شريف الى تأليف كتاب خاص اسماه « ثورة قازان » وقد تحيز فيه للشاعر بشكل سافر وراح يرد سهام الناقدين بحدة ظاهرة ، والذي يعنينا من اقواله استغرابه ان تصدر تلك الحملة النقدية على الشاعر ممن كانوا اخواناً له في العصبة الاندلسية [1] : « رأى اكثر من واحد من (وطاويط) العهد البائد ان ينتقد المعلقة ، فلم يحفظ بهدوئه وكياسته .. والعجيب الغريب ان بعض هذا النفر هو من اعضاء العصبة الاندلسية . والاغرب من ذلك انه لم يوقع شتيمته باسمه فقط ، بل اذاع اسمه انه من العصبة الاندلسية ، فأنعم وأكرم .. »

ثم اثار توفيق ضعون خصومة جديدة مع الشاعر القروي [2] حين نقد رباعيته « حبة القمح » محاولاً ان يقلل من شاعريته في مقالة عنوانها « فرد يستأثر بنصيب امة » [3] فبادر القروي الى الرد عليه متهماً اياه بالجحود وبعقوق امته ومظاهرة اعدائها [4] ثم كانت العاصفة النقدية الجديدة التي أثارها ايضاً هذا الكاتب في كتابه « ذكرى الهجرة » . فهذا الكتاب على جليل مادته التي تؤرخ حركة المهاجرة وشؤون المغتربين اثار حفيظة الكثيرين ، فقد عرض فيه توفيق ضعون جوانب من سير رفاقه من اخوان العصبة الاندلسية ومن

(١) انظر : ثورة قازان في معلقة الأرز ١٨٢ ومؤلفه محمود شريف مغترب مصري

(٢) انظر في ذلك مجلة الشرق ، كانون الثاني ١٩٥٢ ص ٢٦ ، ومجلة العصبة ايلول ، تشرين الاول ١٩٥١ ص ٨٤٩ .

(٣) مجلة « الشرق » كانون الثاني ١٩٥٢ ص ٢٦ .

(٤) مجلة « العصبة » ايلول تشرين الاول ١٩٥١ ص ٧٤٩ .

سوام فاستاؤوا منه ، حتى ان جورج حسون معلوف اعتزم ان ينسحب من العصبة بسبب هذا الكتاب [1] اما فرحات فقد نعت المؤلف بانه « الصديق الذي انقلب الى عدو » ثم قال : «لو ان الرجل تصدى لأدبنا يدرسه وينتقده لهان الأمر .. ولكن لسوء دخلته راح يكتب عن شخصياتنا كتابة لاتتفق والحقيقة » . وقد انحاز يوسف اسعد غانم الى جانب فرحات ، كما انحاز اليه ادباء من خارج العصبة في مقدمتهم زكي قنصل [2] . وقد افضى هذا التهاتر بالشاعر فرحات الى ان يهجو صديقه القديم ويعرض به وبكتابه الآخر « سيرة حياتي » من على منبر النادي الحمصي دون ان يصرح باسمه ، ومن ابياته تلك قوله [3] :

وبمجلد لم أجن حين ربحته ... مما قرأت به سوى الخسران
كشف المؤلف فيه عورة أمة ... هي أمه ولدته للبهتان
تبت يداه فانه لأحق من ... لهب ومن أبويه بالخذلان
جمل وأسطار لها نتن به ... ضرر على الأبصار والآذان

وكان شكر الله الجر من المعجبين بأدب جبران خليل جبران ، وقد اشاد بنبوغه في كتابه عنه « بني أورفليس » في حين جنح توفيق ضعون لانتقاد جبران متهما اياه بالاستهتار باللفظ وقواعد اللغة ... وكان هذا سببا في دبيب الخلاف بين الرجلين . أي بين الجر وضعون . ومن الغريب ان تظهر بوادر خصومة جديدة ولكنها معتدلة اللهجة في ارض الوطن بين اثنين من اخوان العصبة الاندلسية هما الشاعر القروي ونظير زيتون ، فقد نشر زيتون مقالة في

---

(١) مجلة « المواهب » آذار ١٩٤٩ ص ٢٥ — بوينس آيرس
(٢) المصدر السابق
(٣) ديوانه « الصيف » ٢٥٩

مجلة « المعرفـــة » عدد فيها جهاده وجهاد رفاقه في المهجر مغفلاً ذكر القروي ... وقد حز هذا الاغفال في نفس الشاعر فنشر في عدد تال رسالة عتب تطفح بالمرارة ، وجعل عنوانها « فذكر إن نفعت الذكرى »[1].

ولو رحنا نتلمس اسباب الجفاء بين عدد من اعضاء العصبة الاندلسية لوجدناها في أصلها – كما اتضح لنا – اسبابا ادبية تنبع من اختلاف في الرأي ، ولكنها لاتلبث ان تنقلب الى تجريح وتهاتر ، وقد يؤدي الأمر الى القطيعة على نحو ماحدث بين حبيب مسعود ونعمة قازان ، وبين قازان وشكر الله الجر ، وبين شكر الله الجر وتوفيق ضعون ، وبين توفيق ضعون من جهة والقروي وفرحات وحسون من جهة اخرى .

ان ضآلة الانسجام بين عدد من اعضاء العصبة الاندلسية مردها الى عوامل متعددة ، منها تباين ميولهم واهدافهم وثقافاتهم ، ومنهـــا مايتسم به الاديب العربي من نمو في فرديته ، واستقلال في شخصيته ، فليس من اليسير على مثله أن يسلس قياده الى قائد ، أو يسلك نفسه في نظام ، او ينضوي تحت شعار او لواء . فهو ينزع ابدا الى توكيد ذاته وإثبات شخصيته ، ومن هنـا قل ان يألف العمل الجماعي . وعلى ذلك لم يكن الحال بين لفيف من اعضاء العصبة الاندلسية بدعا في المؤسسات الاجتماعية او سائر الجماعات الادبيـــة العربيــة ، كما لم يكن غريبـاً في العصبة ان تتصدع ، ولكن الغريب انها استطاعت ألا تتزعزع ، وان يتماسك كيانها طوال عشرين عاما ، وهـذا عمر

(١) انظر مجلة « المعرفة » أيار ، آب ١٩٦٤

عديد لم تعشه جماعة ادبية سواء في الوطن أو في المهاجر . ولعل من اسباب بقاء العصبة الاندلسية هذا الأمد ماقيض لها من رئاسة ميشال معلوف ثم رئاسة شفيق معلوف ، فقد ألف كل منهما القلوب وجعل الجميع يلتفون حوله ، وكلاهما بذل في سبيل العصبة من جهده وماله ماوقاها العثار ، فكان ادباؤها على اختلاف منازعهم يجدون فيما بينهم نقاط التقاء وكانت رابطة الأدب في رأس مايؤلف بينهم وكأنهم ارتضوا بقول شاعرهم القديم ابي تمام شعارا :

ان يختلف ماء الحياة فماؤنا عذب تحدّر من غمام واحد
او يختلف نسب يؤلف بيننا ادب اقمناه مقـام الوالد

وان عناصر الخلاف بين بعض اعضاء العصبة الاندلسية كانت تنطوي في الوقت نفسه على جوانب من الخير ، اذ اغنت الادب وشحذت القرائح ونفخت في جسم الحياة الادبية في البرازيل روحا ناشطة . لقد كان حال اخوان العصبة الاندلسية اشبه بطيور انتظمت معا في سرب ولكن كلا منها يرفرف فوق غصن ويشدو مايروقه من لحن .

اعمال العصبة الأندلسية :

رفدت العصبة الأندلسية الادب العربي بثروة ادبية جديدة اسهمت في نهضته وزادته غنى . ويتجلى ذلك في العدد الكبير من المقالات والبحوث وفي الكتب التي الفها كتاب العصبة بالعربية او البرتغالية ، او التي عربوها او نقلوها الى لغة تلك البلاد ، كما يتجلى ذلك في المجموعات الشعرية او القصائد الكثيرة التي نشرها شعراؤها في المحافل او بثوها في الصحف والمجلات ..

مما يطول ذكره . ولكننا نقتصر على ايجاز ما قامت به العصبة الاندلسية باعتبارها جماعة ادبية .

ولعل اهم مجالي نشاطها يبدو فيما كانت تسهم به او تقيمه من محافل أدبية في كثير من المناسبات الفنية او الاجتماعية . فقد كانت وفية لأعضائها الراحلين الذين كان يتخطفهم الموت واحدا بعد واحد ، فتقيم لذكرى كل منهم مهرجانا ادبيا يتبارى خلاله الشعراء والكتاب في فن القول على ملأ كبير من جمهور المغتربين . وكان المهرجان الذي اقامته العصبة الاندلسية لرئيسها الراحل ميشال معلوف حافلا ، كذلك احتفلت العصبة بذكرى الآخرين من رفاقها مثل حسني غراب ويوسف البعيني واسكندر كرباج ... كما شاركت العصبة عددا من المؤسسات والمنتديات في حفلات التأبين التي اقامتها للملك فيصل وفوزي المعلوف وامين الريحاني وسواهم ، او حفلات التكريم التي كانت تقام احتفاء بالوفود العربية التي كانت تؤم المهجر لأغراض قومية كوفد الجامعة لقضية فلسطين وما الى ذلك (١) .

وجدير بنا ان نقف قليلا عند مهرجان كبير اقامته العصبة الاندلسية للشاعر العربي أبي الطيب المتنبي بمناسبة مرور ألف عام على وفاته ، وكان ذلك في مدينة سان باولو عام ١٩٣٥ . وقد تكلم في المهرجان من كتاب العصبة نائب رئيسها ثم جورج حسون وتوفيق قربان ، وألقى كل من شعرائها شفيق معلوف وعقل الجر ونصر سمعان والياس فرحات والشاعر القروي قصيدة من غرر الشعر ، وقد عزفت خلال ذلك قطع موسيقية عذبة بعضها ذو طابع شرقي او اندلسي من قبل عازفين اسبان مهرة . ويعد المهرجان من اقوى ما اقيم في

(١) انظر : اكرم زعيتر في كتابه مهمة في قارة ص ٢٩ بيروت ١٩٥٠ .

المهجر وحضره مايزيد عن الف وخمسمئة من المغتربين العرب والبرازيليين فكانت المناسبة تظاهرة قومية وفنية كبري » بزت بروعتها وبما قيل فيها من غرر الشعر كل ما ألقي في الحفلات الأخرى . ولقد حلق شعراؤنا في سماء الابداع حتى جاوروا شاعر العرب الأكبر » .[1] ، « . . وبالفرحة المتبي إذ لقي في بلادقصية ومجهولة أخداناً له واخواناً ، صاغوا له من عقيان الشعر تيجاناً ، ومن القوافي الصداحة عرشاً وصولجانا »[2] ، وقد ذاع أمر هذا المهرجان في الشرق العربي واشادت الأوساط الادبية بفضله وبخاصة عندما حملت اليها مجلة « العصبة » في عددها الخاص عن « عبقري العرب » ماقيل في تلك المناسبة من شعر ونثر ، ومن اصدائه ما أورده صاحب « الرسالة » أحمد حسن الزيات في قوله[3] : « لم يظفر شاعر القوة وشهيد المجد إلا بحفلتين جديرتين بفضله : حفلة قومية اقامها شباب العرب الابرار في سان باولو ، وحفلة رسمية سيقيمها رجال الادب الاخيار في دمشق ، وسان باولو لم تحلق في دنياه . . » ، ومما يجدر ذكره ان المهرجان الألفي أقيم في البرازيل قبل اقامته في سوريا بما يقارب العام .

وفي غير هذا المجال كانت العصبة الاندلسية حريصة على احتضان المحاضرين وتيسير مهمتهم وكان في طليعتهم الخطيب المفوه حبيب اسطفان الذي احدث صدى قوياً بين مستمعيه في مختلف الاقطار الاميركية ، واسهم رئيس العصبة بقدر من المال مساعدة للشاعر القروى في اصدار ديوانه « الأزاهير »[4] . كما

---

(١) مجلة « الاديب » نيسان ١٩٤٩ ص ٦ من كلام حبيب مسعود . بيروت

(٢) مجلة « المعرفة » أيار ١٩٦٤ ص ٧٢ من كلام نظير زيتون .

(٣) مجلة « الرسالة » العدد الثالث ، ١٩٣٥ . القاهرة

(٤) عدل الشاعر عن اصدار ديوانه « الأزاهير » مستقلاً ، حين اتيح له اصدار ديوانه الكبير الذي يضم شعره كافة .

اصدرت العصبة الاندلسية عدداً من الكتب في سلسلة منشوراتها منها كتاب « في هيكل الذكرى » الذي جمع فيه ما تفرق من قصائد رئيس العصبة الأول ميشال معلوف وما قيل في تأبينه . ومنها كتاب « ابن حامد » أو سقوط غرناطة » وهو مسرحية شعرية نثرية ألفها فوزي المعلوف وبقيت مخطوطة سنين طويلة حتى تولت العصبة نشرها ، وكان مما صدر من منشورات العصبة ايضاً كتاب « ما اجملك يالبنان » لحبيب مسعود ، وكتاب « اقاصيص » لجورج حسون معلوف ... الخ .

وعمدت العصبة الاندلسية عن طريق مجلتها الى اقامة مسابقات شعرية عديدة خصصت لها جوائز مالية للقصائد الفائزة سواء في الوطن أو في المهجر ، وقد تولى في بعضها شعراء العصبة و كتابها مهمة التحكيم دون ان يباح لهم الاشتراك في هذه المسابقات ، وتولى في بعضها الآخر شعراء من مصر وسورية ولبنان مهمة التحكيم مثل خليل مطران والأخطل الصغير « بشارة الخوري » وخليل مردم[1] .

وعندما وفقت الجالية العربية الى تخصيص كرسي للغة العربية في جامعة سان باولو ثم كرسي للبرتغالية في جامعة دمشق اوكلت اختيار المدرسين الى العصبة الاندلسية لما تضمه في عداد اعضائها من كفايات علمية ؛ فكان من ندبتهم لهذا العمل من بين اعضائها توفيق قربان وفؤاد نمر وجورج ليان .[2]

---

(١) انظر مجلة العصبة ، كانون الأول ١٩٤٩ ص ١٥٦ ، وقد فاز في بعض هذه المسابقات : شبلي الملاط ويوسف حداد وانور العطار .. وسواهم من شعراء العرب .

(٢) تبرع بمرتبات المدرسين لمدة عام يوسف اليازجي عميد الجالية السورية في البرازيل .

وتعد مكتبة العصبة من أجلّ ما قامت به تلك الجمعية من اعمال ، فقد اقتنت عدداً وفيرا من المؤلفات والكتب التي تنطوي على ادب العرب وتراثهم فكان ذلك خير معين يستقي منه الأدباء المغتربون ويرفدون به ثقافتهم القومية . ولم تكن هذه المكتبة ونظائرها من مكتبات الجاليـــة إلا مراكز هامة من مراكز إشعاع الفكر العربي في البرازيل .

مجلة العصبة :

دخلت العصبة الاندلسية في عهد جديد حين اصدرت في غرة عام ١٩٣٥(١) مجلة شهرية باسمها لتكون لسان حالها دعتها « العصبة »(٢) وذلك بعد مضي عامين على تأسيس تلك الجماعة ، فتكاثر أعضاؤها وتضاعف نشاطها وذاع صيتها . وعندما صدر العدد الأول أهدي الى « ميشال معلوف رئيس العصبة الاندلسية اقراراً بغيرته عليها » ، وقد أوكل أمر المجلة وشؤون تحريرها الى حبيب مسعود احد كتاب العصبة الاندلسية ، وكانت له قبل ذلك خبرة في العمل الصحفي ، مكنته من ممارسة عمله على خير وجه ، وقد قام بتنفيذ الخطة التي رسمها مؤسسو العصبة الاندلسية لها فغدت للأدب العربي في المهجر هيبته وكرامته (٣) .

توجت الصفحة الاولى من كل عدد باسم المجلة « العصبة » مكتوبا بالخط

---

(١) ظن بعض المؤلفين خطأ أن عام صدور المجلة هو عام تأسيس العصبة الاندلسية ومنهم اكرم زعيتر في كتابه : مهمة في قارة ص ٢٩ ، ومحمد عبد الغني حسن في كتابه : الشعر العربي في المهجر ص ٥٠

(٢) يذكر جورج صيدح واكرم زعيتر في مواضع من كتابيهما ان اسم المجلة هو « العصبة الاندلسية » في حين انه « العصبة » .

(٣) مجلة « العصبة » ، كانون الثاني — شباط ١٩٥١ ص ١٦٥

الكوفي ، وتحته عبارة « مجلة أدب وفن » بحرف صغير . وكان متوسط عدد صفحاتها مائة وعشرين صفحة من قياس ١٨×٢٤ سنتيمترا . وتمتاز المجلة بجودة الاخراج واتقان الشكل ، فالورق جيد النوع والحروف جلية وهي في كثير من الاحيان مشكولة وبخاصة في الشعر ، وقل ان يقع القارىء فيها على خطأ في الطباعة . وقد حرص رئيس التحرير على تتويج كل مقالة أو قصيدة بعنوان على طريقة النموذج (كليشيه) يرسمه بخطه الحسن الذي اتقنه وعرف به في المهجر .

أما مادة المجلة فيغلب عليها الطابع الأدبي ، وللشعر فيها نصيب واف ، ويتصدر كل عدد مقالة افتتاحية تعالج قضايا نقدية أو ادبية واحياناً اجتماعية ، وابواب اخرى ثابتة في الغالب يتناول بعضها بحوثاً علمية تواكب سير الحضارة ، ومختارات من عيون الشعر العربي القديم تحت عنوان « خمور معتقة » تنم على إجلال للتراث التليد .

وقد استطاعت المجلة أن تحقق الى حد كبير احد اهداف العصبة الاندلسية وهو « أن تنقـــل الى الشرق العربي أدب المهجر والى المهجر أدب الشرق » . فعلى صفحاتها التقت انبه الأقلام من أرجاء الوطن العربي وسائر المهاجر مثـــل اسماعيـل ادهم وفليكس فارس وحسن كامـل الصيرفي وصالح جودت وحسن حبش .. وسواهم من مصر ، وفدوى طوقان وعيسى الناعوري وروكس العزيزي وحسن الكرمي من فلسطين والاردن ، ومصطفى جواد وانستاس الكرملي ونازك الملائكة .. من العراق ، وسامي الكيالي وشاكر مصطفى وعدنان مردم وزكي المحاسني وقسطنطين زريق من سورية ، وحليم دموس وشبلي الملاط وكرم ملحم كرم وصلاح لبكي .. من لبنان ... واخيراً فيليب حتي وجورج صيدح

وندرة حداد وعبد المسيح حداد واحمد زكي أبو شادي وجورج عساف وجان زلاقط وزكي قنصل من المهاجر الاخرى . . .

ولكن هذا المعين الثر لابد له — اذا لم ترفده الروافد — ان ينضب ، فقد اخذت تلك الشعلة الادبية المتوهجة في المهجر توفي على الذبول بعد ان انتثر عقد اصحابها حين اخترمت المنيـــة الكثيرين منهم ، وعاد بعض من قدرت له العودة الى الوطن . . واخذ الجيل العربي المغترب يذوب كالجليد في ذلك المحيط الاعجمي ، واعقبه جيل ابتعد عن لغة آبائه وعن مذاق ادبهم ، فشحت الاقلام وتضاءل عدد القراء حتى أثقلت النفقات كاهل المجلة . ولكن شفيق معلوف عميد العصبة وحبيب مسعود رئيس تحريرها وقلة عاملة من فلول العصبة ابت الاستسلام فبذلت في سبيل استمرار المجلة ماوسعها الجهـــد كما بذل شفيق معلوف من ماله ما وسعه البذل ، وكان عزاء عليهم ان تحتجب اكبر ثمرة من ثمار العصبة الاندلسية بل الدليل الساطع على بقائها في سجل الاحياء . وفي ذلك راح حبيب مسعود يقول[1] : « لقد اختارت العصبة صليبا ثقيلا فحملته راضية ولا تبرح تحمله حتى تنهك قواها فتسقط ويسقط معها . وهل من صليب أثقل من صليب الادب الذي لايعفر وجهه ولا يطأطىء رأسه . . ؟ » وقد ظلت المجلة في حياتهـــا الاخيرة « قائمة على نتاج قلمين أو ثلاثة من اقلامها ، واصبح جل مايصدر فيها من انتاج وقفاً على بعضهم يوقعه باسماء مستعارة ، أو ينشره غفلا ، إخفاء للواقع المؤلم[2] » .

ولكن لابد مما ليس منه بد ، فقد صدر عدد « العصبة » الاخير في نهاية

(١) مجلة « العصبة » ، كانون الثاني — شباط ١٩٥١ ص ١٦٥ :

(٢) شفيق المعلوف : « مجلة العالم » ، كانون الثاني ١٩٦١ ص ٤٦ .

عام ١٩٥٣[1] وكان به احتجابها . لقد تركت هذه المجلة في خزانة الادب العربي ثلاثة عشر مجلدا حافلة بأفضل ما أنتجه شعراء العربية وكتابها في المهاجر الجنوبية وجلها آثار باقية كان مصيرها — لولا المجلة — الى الضياع . لقد اتسمت المجلة بطابع الرصانة والجد حتى غدت نموذجاً يحتذى في الصحافة الأدبية . « والحق ان المحيط الأدبي في المهجر البرازيلي لم يعرف قبل انشاء (العصبة) ان للأدب وجهاً غير الوجوه التي عرفها فاستقبحها واستنكرها ، فلم يذكرها احـــد مرة الا بالثناء والاطراء ، وبذلك رفعت مكانة الأدب في الاذهان واعلت شأنه في النفوس وشادت له الهيا كل في القلوب ، فعادت للأدب هيبته وكرامته في نفوس كانت قد مجته وعافته[2] » .

وكان على « العصبة » ان تخرج من المضمار بعد ان بقيت فيه حتى الرمق الاخير وأدت رسالتها كاملة . ولكنها لم تخرج منه الا كما سبق لها ان دخلته وهي أغنى ماتكون مادة وابهى ما تكون حلة ، على نحو ما يخرج الجواد الاصيل من الحلبة وهو موفور القوة جم النشاط .

وهكذا زال بزوال هذه المجلة ، مجلة العصبة الاندلسية ، آخر تاج أدبي في المهجر .

انحلال العصبة الأندلسية :

لقد اضمحلت « العصبة الاندلسية » بعـد أن سلخ الزمان عنها فريقاً من رجالها الذين اتيحت لهم العودة الى الوطن ، وبعد ان حصد الموت منها الفريق

---

(١) ذكر فيليب حتي خطأ في كتابه « لبنان في التاريخ » أن المجلة توقفت سنة ١٩٥٠ .

(٢) توفيق ضعون : ذكرى الهجرة ٣٥٥ .

الاكبر وفجع الباقين بهم ، وهذا ما عبر عنه شاعرهم حتى غراب بمرارة وأسى إذ قال[1] :

نثرت أيدي الليالي عقدنا وغدا اكثرنا تحت الثرى

ثم لم يلبث أن لقي وجه ربه في العام نفسه .

وبلوعة مماثلة قال حبيب مسعود[2] : « عقدنا الثمين ينفرط حبة حبة ، وقلبنا النابض يتصدع مرة بعد مرة ، ولساننا الفصيح يتفشى فيه البكم عاماً بعد عام . »

وكما بدأ شعراء العصبة الاندلسية حياتهم متفرقين قبل انتظامهم في سلكها ، عاد من تبقى منهم الى سابق عهده بعد أن انفرط عقدها وتفرق سربها واخذ كل منهم يشدو على فننه حتى يأذن الله بخفوت هذه الاصوات العربية التي غردت أمداً في تلك الربوع الغريبة النائية ، ان هؤلاء هم الذين يعيشون اليوم المأساة ويتجرعون الآلام ، لقد كتب عليهم ان تلفظ « العصبة الاندلسية » انفاسها الاخيرة على أذرعتهم دون أن يستطيعوا امدادها بنسغ الحياة في نزعها الموجع الأخير . انهم يشهدون بحرقة بالغة احتضار مجد العربية في الطرف الآخر من وجه المعمورة ، حيث اشرق الحرف العربي في ربوعها حيناً من الدهر ، وتجلى في سمائها أمداً قصيراً كقوس قزح ، ثم لم يلبث حتى غاب ، فزال بغيابه آخر تاج ادبي في تلك الاندلس الجديدة .

---

(١) مجلة العصبة كانون الثاني - شباط ١٩٥١ ص ١٩٥

(٢) المصدر السابق .

تولستوي (١)

الكاتب والإنسان

زهير بغدادي

في صبيحة الثامن والعشرين من شهر تشرين الأول عام ١٩١٠ خرج رجل عجوز أبيض اللحية ، مهيب الوجه ، من منزله الريفي الأبيض الكائن في ياسنايا بوليانا ، بعد مشادة حادة مع زوجته التأمت في الليلة السابقة ، يرافقه طبيبه الذي يناهزه العمر ، وكان يرتدي ثياب الفلاحين الروس ، ويحمل فوق ظهره جعبة صغيرة ، وانطلق الاثنان الى وجهة غير معلومة . وسرعان ما امتصت الغابة أصوات العربة التي أقلتها الى مكان ما .

(١) بمناسبة الذكرى الـ ١٤٠ لميلاد الكاتب الروسي ليف تولستوي .

وفي اليوم السابع من تشرين الثاني ، اي بعــد حوالي تسعة ايام ، انتشر خبر وفاة كاتب روسيا الأكبر ليف نيكولايفيتش تولستوي في غرفة صغيرة تقع في محطة قطارات صغيرة اسمها : آستابوفو ، بعد مرض عضال فجره السير المنهك ، والبرد الخريفي .. وهكذا كانت حادثة فرار الشيخ تولستوي من داره ولقائه المنية على قارعة الطريق بعد اثنين وثمانين سنة من العمر .

وبقدر ما كان موت هـذا الكاتب الانساني الكبير خسارة لوطنه الأم روسيا وللعالم اجمع ، بقدر ما كان ذلك أمراً ضرورياً . فلو قدر لمثل هذا الانسان العملاق ان يحيا سنوات اخرى لكانت نهايته أشد سوءاً ، كأن ينتهي منتحراً او في مستشفى للأمراض العقلية او ما شابه ذلك . وأية نهاية تنتظر كاتباً وإنساناً كهذا ظل يناطح صخرة الحياة وتناطحه طيلة نصف قرن من الزمن ونيف فتنال منه وينال منها ولا يهدأ ، ليجد نفسه فجأة أمام سيل هادر يشق طريقه ، فيتردد بين العوم معه ومحاولة ايقافه وتحويل مجراه ، جاهداً في نفس الوقت ان ينصب الجسور في وقت لا تنفع فيه الجسور ، وان يصل بين ما لا يتصل ، فيعاني بذلك ألم التمزق الذي يضني رواد البشر ممن وجدوا انفسهم مشطورين بين عصرين يدوسون بقدم في واحد وبقدم في الآخر .

وبعد ما أصعب الحديث عن تولستوي وما أسهله !

ترى هل ابدأ حديثي معكم عن تولستوي الكاتب ؟ ام تولستوي الانسان؟ ولكن .. ويبدو لي ان طرح السؤال بهذا الشكل غير صحيح بعض الشيء . فمتى كنا نستطيع فصل الكاتب عن كينونته الانسانية ؟ إن الكاتب هو الانسان الحقيقي في آن واحد وإن كان العكس غير صحيح .

أما تولستوي الذي نجتمع اليوم احتفـالاً بذكراه فلم يكن الكاتب

الحقيقي والانسان الكبير فقط ،بل كان الموسوعة التاريخية للشعب الروسي بأجمعه خلال حقبة زمنية من تطوره . واذا صح ما قاله نفس تولستوي ذات مرة « من شاء ان يدرك كنه الشعب الروسي لابد له ان يلم إلماماً تاماً وعميقاً بماضيه وبتاريخه وساعاته الحاسمة وعهوده المفجعة المبدعة التي تشكلت اثناءها اخلاق الشعب الروسي» فأنا أقول لكم : لكي تتعرفوا جيداً على شعب روسيا ، وماضيه وتاريخه وعهوده المفجعة ، وأخلاقه ، يجب ان تتعرفوا جيداً على ادب تولستوي وحياته . فمن النادر ان تنعكس في مرآة اديب ما لوحة العصر بكل الوانها الصارخة، المتناقضة والحزينة ، والمفرحة مثلما هو الامر في ادب تولستوي ومفاهيمه وتعاليمه . واذا كانت قيمة الانسان تقاس بما يفعله ، وبالطريقة التي يتبعها لفعله ، وباسم ماذا يفعل ذلك كله فأقل ما يمكن ان يقال عن اديبنا المحتفى بذكراه اليوم انه كان : انساناً بالأحرف الكبرى .

كتب تولستوي مرة في مذكراته عن عام ١٨٩٦ : « كي يؤمن الانسان بالخلود ، لابد ان يعيش على هذه الأرض حياة خالدة » .

فكيف تراه دخل عالم الخلود ؟

لو اردنا متابعة حياة هذا الكاتب منذ بدايتها حتى نهايتها لا حتاج الامر الى مالا طاقة لنا بالحديث عنه او سماعه في جلسة واحدة .. فلنكتف بان نعرف بعضاً من هذا المحيط الواسع اللامتناهي . ثمة حقيقة قد تذهل في بساطتها وهو انه بالرغم من مضي اكثر من نصف قرن على وفاة تولستوي فمازالت مؤسسات الأدب العريقة في بلاده وفي العالم اجمع تبحث وتنقب وتستخلص من هذا الكون الانساني الذي تشمخ وسطه شخصية تولستوي الهائلة الباحثة بدأب واخلاص عن الحقيقة في سبيل الانسانية جمعاء ، والتي سقطت في معمعان الكفاح من اجل

التحقيق والتنفيذ .. وقد لا نبالغ اذ نقول ان ما كتب عنـه حتى الآن يفوق ما كتب عن اي اديب آخر في تاريخ الادب العالمي .

لو تأملنا الحقبة الزمنية التي تبلورت فيها شخصية تولستوي الكاتب والانسان ،اي فترة الاربعينات من القرن الماضي ،لوجدنا انها كانت فترة نهوض روحي واجتماعي في حياة روسيا . فمنذ مطلع الأربعينات بدأ الفكر الاجتماعي الروسي يدخل حيز درب جديدة قاده فيما بعد نحو الماركسية ، وقد استعر النضال هناك من اجل نظرية علمية تقدمية في وقت كانت غالبية البشر فيه ماتزال محرومة من اية حقوق . ولهـذا نجد ان رجال الحركة التحررية الروسية كانوا يدافعون عن الانسان وحقوقه واعاروا عالمه النفسي الداخلي اهتمامهم البالغ . والادب الروسي الذي لم يتخلف يوماً عن اللحاق بركب التفاعل القومي كرس نفسه لما كان يجري ، وهب الادباء الطليعيون آنذاك ينادون بالتغير الجذري للواقع القائم .

ولكي نفهم مجرى عملية تقولب تولستوي الاول لابد لنا ان نرجع الى تلك الفترة التي تقع بين عام ١٨٤٥ و١٨٥٢ . ففي عام ١٨٤٥ عندما كان طالباً في جامعة قازان زار املاكه في ياسنايا بوليانا، واهتم بأمور الزراعة وقرأ الكثير من الكتب ومن جملتها مؤلفات روسو وديكارت . ومنذ تلك الفترة بدأ يفكر بخططه المقبلة . وفي عام ١٨٤٧ بدأ بتدوين مذكراته التي تعتبر خلاصة الحوار الفكري ــ الفلسفي الذي اجراه مع نفسه اثر المطالعات الواسعة . وفي نفس العام طرد من الجامعة نتيجة ما قام به من محاولات لتنفيذ مخططات زراعية فشلت فيما بعد ، مما سبب له ازمة نفسية حادة كانت ثمرتها روايته الاولى « رواية عن اقطاعي روسي » بعد مجموعات من القصص الطويلة . وفكرة الرواية الاولى هـذه تدور حول المعاناة

التي ذاقها اقطاعي نتيجة عدم ثقة الفلاحين بما ينوي القيام به لصالحهم .

لو اردنا تقسيم الطريق التي مرت عليها مراحل تطور شخصية تولستوي لوجدنا انها ثلاثة مراحل : تولستوي الفيلسوف – تولستوي المناضل الاجتماعي – ثم تولستوي الفنان .

ترى إلام انتهى تولستوي من استغراقه الطويل في عالم الفلسفة والأخلاق والاجتماع ؟ وهل استطاع ان يحقق ما اكتشفه في بحثه الطويل الشائك ؟

جاء في مذكرات تولستوي عن عام ١٨٥٥ مايلي : « لقد راودتني فكرة عظيمة استطيع ان اضحي في سبيل تحقيقها بحياتي كلها . . وهي تتلخص في تأسيس دين جديد ، دين المسيح نفسه ، لكن نازعاً مافيه من عقائد ومعجزات » .

والواقع نجد ان ما قام به تولستوي من تغيير في حياته بعد هذه الفترة لم يكن إلا محاولة مثالية خالصة لتحقيق هذه التعاليم الاجتماعية والاخلاقية الجديدة . ولهذا نراه يرتدي ثياب الفلاحين ، ويشتغل بنفسه في الحقل ، ويوزع أملاكه على الفلاحين الفقراء ، وهذا يبرهن ان تولستوي يعتبر عمل الحقل الشاق والشريف معاً هو الذي يكسب المرء خبزه ، ويرفض ان يتقاضى اجراً على مؤلفاته ويعتبر « الملكية » خطيئة لاتغتفر ، ويقوم بأعمال البر ، ويكرس من وقته لأكثر البشر ، ويهتم بكل ظلامة واثم على الأرض . وهكذا الى ان وجد نفسه غارقاً في حياته الشخصية بواجبات لم تكن تخطر على باله : كان يطالبه الفلاحون بالاملاق التام ، والاقتسام المطلق لبؤسهم وشقائهم غير مكتفين بالتوجيهات والوعود والتضحية الفردية فقط . ومن هنا نشأت

خيبة مفاجئة في نفس تولستوي ، فألقى بندائه : « لابد للمرء كي يسمعه العالم من ان يسقي الحقيقة بالعذاب وحتى بالموت ايضاً » .

ولهذا نجد ان حياة تولستوي أصبحت مشهداً مفجعاً سببها البتر الحاسم لكل قوانين العصر وأعرافه ، في وقت تشابكت فيه هذه القوانين والأعراف بآلاف الخيوط والاسلاك ، وتلاحمت بشكل يكون بترها من طرف واحد مثاراً لتداعي قواها وسحق من حاول ذلك .

ومع ذلك لم يستسلم تولستوي رغم التجارب المرّة التي مر بهـا كأي متعطش للعذابات الحقيقية التي تعتبر البرهان الفعلي لاخلاصه وصدقه . وتابع سيره للاقتراب اكثر فاكثر من الانسان : من الفقر والبؤس والعذاب ليتعرف على المغزى الخلاق للانسان .

أما القلم فقد أمسكه تولستوي وهو في العشرين من عمره .. ولم يتوقف عن استخدامه في سبيل الرسالة الانسانية الجليلة التي ألقاها على عاتقه حتى آخر ايام حياته حين كتب الى زوجته بعد فراره من داره رسالة حملها لها الحوذي قائلاً فيها « اني اهجر هذه الحياة الدنيوية ، كي أقضي أيامي الأخيرة في الوحدة والسكون » . لكن قمة ابداعه الفني جاءت بعد منتصف الطريق، اي حين أعطى رواياته الشهيرة « الحرب والسلم » و« آنا كارنينا » و « البعث » .

لقد اندمجت في تولستوي عبقرية الكاتب وسمات الانسان العظيم اندماج الروح بالجسد . ان عظمة تولستوي الكاتب والمكافح كامنة في إخلاصه لنفسه وتجدده المستمر مع الحياة . انه لا يكرر نفسه ، ولكنه لا يؤلف جديداً منفصلاً عما سبق، بل متابعاً له ومتكاملاً معه . ان تولستوي وحدة كاملة، لأجزاء متباينة ، اي ان تراه في مرحلة ما تكاد لا تعرفه في مرحلة أخرى ، وهذا سر من اسرار نفسه المتكاملة

السامقة . ان ادب تولستوي هو انعكاس عميق وتام وشامل للقرن التاسع عشر وقد صدق غوركي في قوله : « لقد قال تولستوي وحده ماقاله الأدب الروسي الباقي كله » .

فلنتوقف عند حلقة واحدة من هذه السلسلة الطويلة المترابطة لنتعرف على تولستوي الكاتب عن قرب اكثر :

كانت رواية « آنا كارنينا » مرآة عصر كامل ترعزع فيه كل شيء في روسيا ، وبدأ يتناسق تدريجياً . وهي قفزة جديدة في الارتقاء الفكري والأدبي لتولستوي : فهي تضم جميع المفاهيم المستقطرة عبر تأمل طويل للحياة الاجتماعية، وجميع المكتشفات الفنية التي حققها تولستوي في مرحلة السبعينات الانتقالية .

الفكرة الرئيسية لرواية « آنا كارنينا » تدور حول الحياة العائلية . لقد عاش تولستوي في المجتمع الروسي كله من أعلاه الى اسفله وكان يقول : « اني انظر من تحت ١٠٠ مليون روسي » فكان يرى ان السعادة العائلية لايجب ، ولا يمكن لها ، ان تنقذنا من الحياة المحيطة بنا ومن التحسس بالأحداث الاجتماعية . ان السعادة العائلية لا تنقذنا من التفكير الدائب المرهق في المسائل الفلسفية والاخلاقية والاجتماعية الكبرى للحياة . هذا ما أراد ان يؤكد عليه تولستوي في رائعته الخالدة .

ان حياة زوج آنا السيد ليفين في بيته ومع عائلته الهادئة ، لم تحرره من التفكير بمعنى الحياة ، ومن الاحساس بالذنب امام الشعب ، ومن البحث عن السعادة للجميع .

لقد تزعزع كل شيء في روسيا ، واختلط كل شيء في عائلة اوبلونسكي ، ومع انهيار عصر ، ومآسيه التي لا تحصى يبدو انهيار عائلة ضمن اطار تاريخي

مأسوي تعبيراً عن تداعي آخر حصن اجتماعي . ان تاريخ « آنا » الضحية ، هو مركز الثقل في الرواية ، وهو مرتبط بالجو العام للموت وولادة مجتمع روسي جديد . لم يعد الطابع الارستقراطي للعائلات ، حيث يبدو للناظر من بعيد جمال المنظر ، ضمانة للسعادة . لقد عمت الفوضى والاضطراب والقلق الجميع : فبطلة الرواية تموت ، وزوجها يخفي عن ناظريه كل الحبال والمسدسات حتى لا يضطر في لحظة ضعف للحاق بها ، ودولي الباحثة عن السعادة تحاول قطع شرايينها انقاذاً لآل اوبلونسكي . فأين هي العائلة السعيدة ؟

ان درب كل من ليفين وآنا يختلف عن الآخر . فآنا تبحث عن السعادة ضمن نطاق شخصي محدد . أما السعادة الأكيدة في نظر تولستوي فهي تبنى على منطق قوي سليم . الحب لا يمكن أن يكون سعادة في زمن تتمزق فيه خلايا المجتمع وتتآكل . كان ليفين يبحث عن الحقيقة الكبرى ، ولا نرى انه يتوصل اليها إلا في نهاية الرواية . ان السير المتوازي والمستقل معاً لمصير حياة كل من آنا وليفين يبدو في انسجام مطلق مع بناء الرواية ككل ، الذي يحدد توازي واستقلال موضوعين مرتبطين بفكرة واحدة . إن آنا وليفين في رفضهما لعالم الشر والكذب يصلان الى نتيجة واحدة : « لقد منحنا العقل لكي نتخلص ولا بد من الخلاص . ولم لا نطفىء الشموع حين لا يوجد ما يستحق النظر اليه ، حين يصبح من المقرف النظر الى كل هذا ؟ كل شيء كذب في كذب ، وخداع في خداع ، وشر مستأصل » هكذا كانت تفكر آنا ، لا في علاقتها مع فرونسكي وحسب ، بل وفي نظرتها الشاملة النفاذة الى كل ما حولها . ونرى ليفين يتبنى نفس وجهة النظر هذه ، بحديث آخر « .. هذا ليس كذباً وحسب .. انه سخرية قوة «شريرة» ما .. قوة مكروهة لا يجوز الخضوع لها . كان يجب التخلص منها .

والخلاص هو في قدرة كل شخص . كان يجب ايقاف التبعية لهذا الشر .. وكان ثمة مهرب واحد : الموت . »

ان الحديث عن التحرك المأسوي الذي يرافق انهيار عصر ، يجري بنفس القوة في سرد تولستوي عن انتحار آنا ، والمصير السعيد لليفين . والنظرة التشاؤمية للحياة التي صبغت تولستوي خلال السبعينات لم يكن أمراً عارضاً في عرضه ضمن المعاناة الداخلية لبطلي هذه الرواية . انه تشاؤم حتمي جاء انعكاساً للواقع الروسي التاريخي ، وتعبيراً عن روح تولستوي نفسه آنذاك ، يوم كان يعي بعمق وبصيرة نفاذة الأزمة المستعصية للعالم القديم ، وصراعه مع بذور عالم جديد يتناسق ، لكنه غامض ومعقد . وكان تولستوي في هذا يجهد بشقاء وعناء للبحث عن طريق الخلاص من الشرور والآثام الاجتماعية والأخلاقية التي اندثرت مع انهيار العصر فيما بعد .

كتب لينين عن تلك الفترة الحاسمة الدقيقة يقول : «ان التشاؤم واللامقاومة واستحضار « الروح » هي ايديولوجية تظهر لا محالة في حقبة « تزعزع » فيها النظام القديم بأسره، ولم تر فيه الجماهير التي نشأت في ظل ذلك النظام القديم الذي رضعت مع حليب امهاتها مبادئه،وعاداته ، وتقاليده ، ومعتقداته . ولاتستطيع تلك الجماهير ان ترى ما هو النظام الجديد الذي « يتنسق » واي قوة اجتماعية تنسقه وكيف ، واي قوى اجتماعية قادرة على تخليصه من الآلام الكثيرة والحادة الملازمة لعثرات « التهديمات » .

ولكن لا بد لنا من القول ان النتائج المتشابهة ليست الاخيرة والنهائية في رواية « آنا كارنينا » . صحيح انه بموت آنا تنتهي الرواية نفسها . لكن الفكرة العائلية هي التي تحدد في الواقع تطور الموضوع العائلي هذا ، وتضفي عليه حقيقة

مبهجة تفتح النور للحياة ، وتؤكد صدق وضرورة هذه النظرية . فالمأساة في « آنا كارينينا» تنتصر ضمن إطار ملحمي، ويتزايد تأثير الفلسفة التفاؤلية لينتصر على التشاؤم .

إن الخلفية السوداء المظلمة لرواية « آنا كارينينا » تبدأ بالانقشاع واللألأة عندما يبزغ فيها عالم الريف والعمل. آنذاك تتفتح امام ليفين ذو الصلة بهذا العالم، تفتح السماء .. نفس السماء التي نشاهدها في رواية « الحرب والسلم » والتي ترمز الى ادراك المعنى الحقيقي للحياة ، والى تذليل المطامع الشخصية الأنانية التي تمزق البشر وتبعدهم عن العالم الاصيل . وهنا يلعب الرمز دوره كما هو الامر في البناء الفني للرواية ليوحي الى الضياء والتعلق بالحياة. فتحول الغيوم وانقشاعها يشير الى انقشاع افكار ليفين . وهذا يتم حين يبدأ بالتفكير في حياة الفلاحين . « سماء عالية ، نقية ، وثمة مثلث نجمي ، ودرب ابيض كالحليب يخترقه » في كلمات فيدور هذه الموجهة الى ليفين تأكيد لفكرة ان الحياة ليست فارغة المعنى كما كانت تبدو في السابق ، بل انها تحوي بذور الخير ، وانما نحن الذين نستطيع وضعها ورعايتها وسقايتها .

واذا بدا للقارىء ان المصير الحياتي لكل من آنا وليفين في الرواية متشابه ومتطابق ، لكنه يتباعد ويفترق في طريقة بحث كل منهما عن الخير . ففي الوقت الذي يقترب فيه ليفين تدريجياً من الينابيع الشعبية للحياة نجد أن آنا تبتعد عنها شيئاً فشيئاً وخطوة اثر خطوة . فبينما نجدها في البداية انسانة طبيعية متواضعة ، وهذا مايبدو من استعمالها للغة الروسية فقط مثلاً ، وعدم ورود أية كلمة فرنسية (الشيء الذي كان سمة ابناء الطبقات الثرية آنذاك) ويبدو كذلك من تصرفاتها في حفلات الرقص الكبرى، ومن الوصف المسهب الدقيق للطبيعة الروسية الخلابة

الذي يرافق حديث تولستوي عنها . نجد في النصف الثاني من الرواية كيف تبدأ بفقدان هذا الطابع البسيط ، الاصيل لشخصيتها ، كأن تبدأ باستعمال العبارات الفرنسية بكثرة او الانكليزية ، كما نجد ان سفرها مع فرونسكي الى الخارج قد ترك اثره في طريقة تصرفاتها ، كمن يحاول الهروب من نفسه . وهكذا تنحدر آنا وتميل الى الذبول .

ان رواية ليف تولستوي هذه ليست الا عبارة عن تحليل مبدع ، وطرح خلاق لقضايا روسيا الكبرى وتناقضاتها الحادة آنذاك . وهذا ما ساهم في قولبة الفكر الاساسي لدى تولستوي في مرحلة السبعينات من القرن الماضي ، وما جعله يقف في معسكر « الشعبيين » مع احتفاظه برونقه الخاص الذي يميزه عن افكارهم وعن مفاهيم الديمقراطيين الثوريين في نفس الوقت .

فاذا كان « الشعبيون » يعتمدون في مفاهيمهم الاصلاحية على الاصل الريفي ، حيث يبدو لهم موطن العلاج لروسيا كلها ، الا ان تولستوي كان اول كاتب تلمس ولادة الرأسمالية في روسيا كنظام اجتماعي جديد ، وعبر عنه بقوة فنية بارعة . ففي شخصية ريابينين صورة للتاجر النهم ، الرابط الجأش ، الواثق من افلاس الجنة الريفية ، واضطرارها للركوع امام قوة فتية جديدة هي قوة الرأسمال . وهنا تجدر الاشارة الى ان تولستوي ، في تحسسه المرهف هذا لم يصل الى ابعد من التلميح الى ما بدا له . فهو لم يتخذ موقفاً حاسماً محدداً ، بل حتى لم يتوانى عن الاشارة الى عدم قناعته التامة بضرورة الجديد ، وحتميته التاريخية . وكان يعتقد انه لو لم يكن امثال آل او بلونسكي وفرونسكي في الريف الروسي ، بل امثال ليفين فقط ، ممن يعرفون قيمة الارض والكدح ، فان نماذج مشابهة للتاجر ريابينين لا تستطيع عمل شيء يهدد الريف الروسي . لقد حاول تولستوي جاهداً ، وهو يرى

تسرب العلاقات الرأسمالية الى الريف الروسي ، ان يجد الخلاص لأفضل نماذج الطبقة الريفية ، لأولئك الذين يجب عليهم ألا يشعروا بالذنب أمثال ليفين .

في مقالته « تولستوي مرآة الثورة الروسية » يقول لينين :

«يقال ان الهزيمة مدرسة طيبة للجيوش.. وما من شك في أن مقارنة الطبقات الثورية بالجيوش ليست صحيحة الا على نطاق ضيق جداً.. لقد حدث كسب لا ريب فيه في السنوات الاولى للثورة، والهزائم الاولى في النضال الثوري الجماهيري هو الضربة القاتلة التي سددت للخور والميوعة القديمة لدى الجماهير . لقد اصبحت الخطوط الفاصلة اكثر وضوحاً ، وتحددت الطبقات والاحزاب وستدفع حتى الجماهير الدمقراطية من الفلاحين ايضاً، ستدفع لامحالة الى الأمام المناضلين الاكثر تمرساً وحنكة والأكثر عصمة من الوقوع في خطأنا التاريخي التولستوي » .

لكن التحليل النقدي الدقيق هذا لمفهوم تولستوي عن الخلاص الاجتماعي والاخلاقي لا ينفي بالطبع الاهمية الكبرى للنزعة التولستوية التي طمحت قبل كل شيء الى تحقيق المسودة الاصلية للانسان الكامل .

لقد مضى ثمانية وخمسون عاماً على موت اكبر كتاب روسيا اطلاقاً : ليف تولستوي . وما زال في شخصيته رمز من رموز الانسانية المتطلعة ابداً نحو تحقيق الكمال . لقد قال تولستوي ذات مرة بتهكم ساخر ، ذكي : « ما معنى أن نعرف ؟ مثلاً : إنني اعرف أنني أنا تولستوي ، كاتب ، ولديّ زوجة ، واولاد ، وشعر ابيض ، ووجه وسيم ولحية . هذا ما يكتبونه في جوازات السفر . لكنهم في جوازات السفر لا يكتبون عن الروح . انني اعرف شيئاً واحداً : الروح ترغب بالاقتراب من الله . وما هو الله ؟ انه جزء من روحي. هذا كل شيء . من

تعلم التفكير يصعب عليه الايمان . وكي نحيا مع الله يجب أن نؤمن . لقد قال ترتوليان « الفكر هو الشر » .

ولا شك انه في جواز سفر الانسانية الخالد مكان لروح تولستوي في الأعمدة الاولى . قال غوركي في تأبين تولستوي : « إنه انسان الانسانية » ، وقد لا يكون غوركي قد ذكر كل الحقيقة في هذه العبارة . لقد عاش تولستوي وعمل ومات باسم الانسان ، وهو ممن ادركوا بحسهم السليم ، وبصيرتهم الكونية النفاذة صورة الانسان في أكمل الوانها . وقد يجل علينا الزمن في عالمنا المختلط ، المتنازع المتصارع ببشر يحرصون على نزع القشور ، وتنقية الروح ، ونبش النفوس كما فعل تولستوي . لقد جاء في كتابات ستيفان زفايغ عنه « ان الانسانية تفتش دوماً عبر فرار الزمن عن الانسان الذي يمكن ان يكون شعاراً ومثالاً يحتذى به ، كي تجعل منه رمزاً حسياً الاخلاقي الباحث عن الابدية ، ولا تختار الا اقوى الجميع من بين العدد الوفير ، كي تثبت قوتها . انها لا تمجد ارادتها الا في الانسان الذي يبذل اعظم الجهود ، وينقب في حمياً جبارة فقط ، انها لا تعرف علمهـا وحقيقتها الا في انسان الحقيقة وحده .. من دون سواه » .

نعم .. ان الانسانية ما تزال ، وستظل بحاجـة الى تولستوي والى تولستويين .. فالخلود لإنسان الانسانية .. والسلام على روحه الحاضرة ابداً .. والمجد لجسده المصلوب عبر الزمن .. انقاذاً لكرامة الانسان وفداء له ، وتخليصاً له من الشرور والآثام .

ناظم حكمت

في آخر قصائده

حنا مينه

يصدر قريباً ديوان جديد للشاعر التركي الكبير ناظم حكمت مترجماً الى اللغة العربية[1] . ولئن كان القراء العرب يعرفون هذا الشاعر ويحترمون فيه شاعرية عظيمة حلقت بجناحي نسر في سماء القرن العشرين ، ويقدرون صموده الاسطوري الذي بلغ من أمره انه هتف ، بعد اربعة عشر عاماً من السجن المتواصل : « الحياة ليست دعابة فلتعشها بجد » ، واذا كانوا ، في طموحهم الى المستقبل الافضل ، قد استناروا بالضوء الساطع لقصائده التي تعلم

(١) ترجم الديوان عن التركية الكاتب المعروف الاستاذ ثابت العزاوي

حب الحياة ، فانما فعلوا ذلك وهم يقرأون ناظم حكمت مترجماً ، في الغالب ، عن اللغة الفرنسية . والشعر حين يترجم من لغة الى لغة مثالية ، يبتعد مهما بلغ الحرص ، عن أصله ، ويفقد نتيجة التصرف الذي لابد منه كثيراً من دقته وحلاوته .

لهذا أراني على سرور غير قليل ، وأنا أعلم ان هذا الشاعر سينقل الينا عن لغته الاصلية هذه المرة ، وفي ديوان كامل . ومع ان هدفي ، الآن ، تقديم بعض قصائده ، معربة عن التركية مباشرة ، فانني اقدم معها شيئاً عن سيرة حياته . وشيئاً من اراء النقاد فيه .

ولد ناظم حكمت في سلانيك عام ١٩٠١[1] ، لأبوين هما حكمت ناظم بك ، مدير المطبوعات العام ، وعايشة جليلة خانم ، الرسامة . وكان جده محمد ناظم باشا والياً على سورية في وقت من أوقات الحكم العثماني ، ومن هنا كان تقدير هذه الاسرة ، وخاصة الشاعر ، لتراث الأدب العربي . وقد اكمل ناظم دراسته الابتدائية في مدرسة طاش في « كوزتيه » ، ثم درس في تجهيز « غلطة سراي » في استنبول ، ومنها انتقل الى مدرسة « نيشان طاش » النموذجية ، فالمدرسة البحرية في « هيجلي » ليهجر الحياة العسكرية بعد خمس سنوات بسبب اصابته بذات الجنب للمرة الثانية .

وخلال حرب التحرير بقيادة اتاتورك ، عبر ناظم الى الاناضول وساهم في القتال ، وهناك اتصل بالزعيم التركي الذي سيقدر موهبته الشعرية ، ويساعدفي

---

(١) تاريخ الولادة هذا مأخوذ عن كراس للكاتب التركي يالشين قنيا ، ترجمه ثابت العزاوي ولا يزال مخطوطاً . اما الكاتب التركي حسن غرة فقد ذكر في مجموعة اشعارناظم حكمت بالفرنسية الصادرة عام ١٩٥١ انه ولد عام ١٩٠٢ في استانبول لاسلانيك .

إرساله الى الاتحاد السوفياتي ليدرس الاقتصاد السياسي ، ثم يحن الى شعره ويطلب اسطوانات سجل عليها ، ليستمع الى الصوت الرخيم المبشر بآمال امة وتطلعاتها.

يعود الشاعر الى تركيا عام ١٩٢٨ ويعمل في الصحف والمطابع والاستديوهات حتى العام ١٩٣٦ ، ويصدر خلال هذه الفترة مايقرب من عشرة دواوين وثلاث مسرحيات ، وكثيراً من القصائد الساخرة بتوقيع « اورخان سليم » . وقد ازعج نشاط ناظم حكمت ، ودعوته لأجل تركيا جديدة ، متحررة ، متقدمة ، اشتراكية ، وعداؤه للفاشية ، ومناصرته لحركات التحرر الوطني ، ازعج الرجعية التركية التي تعد نفسها لزواج غير شرعي مع النازية الالمانية ، فزجت به في سجن بروصة بتهمة نشر « المبادىء الهدامة»،وحكمت عليه في جو من السرية بالسجن ثمانية وعشرين عاماً ، ثم رفعتها الى اربعة وخمسين عاماً ، قضى منها اربعة عشر عاماً تقريباً في سجن متصل ، انفرادي في اغلب الاحيان ، حتى اشرف على الموت في مطلع الخمسينات من هذا القرن ، فثارت عاصفة من الاحتجاج شملت العالم، واضطرت الحكومة التركية الى اطلاق سراحه. وبعد قليل تخطى حدود بلاده الى البلدان الاشتراكية . واستقر في الاتحاد السوفياتي الذي سيكون « وطنه الثاني » ، ومثواه الأخير عام ١٩٦٣ . وقد واصل ناظم ، طوال غربته ، حمل قضية وطنه والانسانية ، وطلع على الدنيا بروائع الشعر الانساني الذي تغنى فيه بالكفاح والعدل والسلم والحرية ،وسالت كلماته قطرات ندى من الحب والحنان في القصائد الموجهة الى زوجه « منور » وابنه محمد اللذين فقد الاتصال بها ، وجهل مصيرهما الى ماقبل وفاته بقليل جداً.

لقد شق قاربه الشعري بحوراً تجيش بأنواع التجارب على مدى عمره كإنسان، ومدى وجوده الفكري كورِث للمعرفة ، ورغم صحارى الماء ، وجزر المصاعب،

ومتاهات الرحلة على خريطة لاتغطي إلا القليل من مسافة الرحلة ، واصل طريقه مهتدياً بالاشتراكية العلمية التي ستكون منارة لأعظم شعراء العصر : مايا كوفسكي ، وبول إيلوار ، وغارسيالوركا ، واراغون ، وبابلو نيرودا ، بعـد ان عصبت الميتافيزيقا عيون أكثر شعراء القرنين الثامن والتاسع عشر بالغيبية التي اسلمتهم الى الضياع .

وحين أطل ناظم حكمت على الدنيا ، مع إطلالة القرن العشرين ، كان الشعر التركي يحتضر في جو البلاغة والرتابة والذاتية وخلل « جثث النظم المتشابه النغم » — حسب تعبير الناقد التركي صدري أدهم آرتام — مواصلاً نسج شرنقته التقليدية ، مقطوراً الى عربة الآداب الشرقية ، والفارسية بخـاصة ، مؤرجحاً جذعه كما في حلقات الذكر على « دربكة » فاعلاتن فاعلاتن . فعمد ناظم الى فصم هذه العربة ، وتغيير أطر الشعر ومضامينه ، لانه فهم ، منذ البدء ، ان شعر القرن العشرين ، اذا كان يطمح الى شرف الانتساب لعصره ، فـلا بد له ، في الدعوة الى تحرير المجتمع والافكار ، من تحرير نفسه أولاً ، ومن التعبير بصدق عن الحياة . وقد كتب في مجلة « وسملي آي » — الشهر المصور — : « ان العروض واوزان التفاعيل وانماط القوافي السابقـة ، هي اشكال للشعر في مجتمعات معينة ومجالات اقتصادية محددة آخذة بالانهيـار بسبب التبدل في الوسط الاجتماعي والاقتصادي ، وان هذا الانهيار يحـدث في صميم الأشكال الشعرية العتيقة . ان مضاريع الشعر وان ظلت مضاريع من الناحية الفنية فانها تتجزأ من وجهة نظر التدفق العاطفي » . وقال عن مهمة الفن : « الفن الحقيقي هو الذي يعكس الحياة بكل تناقضاتها وصراعاتها وانتصاراتها وانكساراتها وحبها وبغضها بكل مظاهر إبداع الانسان فيها . الفن الحقيقي هو الذي يرفض الزيف حول الحياة » .

وقد طبق ناظم حكمت آراءه في الشعر هذه ، ولكنه أفلت من فخ جعل

التلقي والأداء معادلة شعورية لصيغ الفكر الذهنية . إن الصورة الشعرية عنده « فعل شعري » أكثر مما هي تشبيه وتخيلات وافتعالات. «فعل شعري» يرتكز على التجربة والمعاناة ووضوح الرؤية ، وصيرورة « الانا » و« النحن » و «الكل» وحدة غير قابلة للانفصام ، عصية على التمييز بين الشكل والمضمون ، لانها عضوية، تامة . والحقيقة الجديدة التي تولد عن شعر كهذا ، والتي تحمل طابع الاصالة الشعرية نفسها ، تستطيع - كما يقول الشاعر الفرنسي تريستان تزارا في دراسته عن الشاعر - « ان تدخل في التراث الثقافي الانساني ، وان تفعل فعل الخميرة في تحول العالم » .

ولم يقتصر التجديد عند ناظم حكمت على الشكل وحده ، بل شمل المضمون واللغة وزوايا النظرة وطرق التعبير عن الأشياء ، والاشياء المعبر عنها ذاتها . وقد كتب الناقد التركي فروزان خسرونكين يقول : « ناظم حكمت أول من حطم ناب الفيل الهرم في شعرنا . لقد أتى بشعر ذي مفاهيم حية عطرة مقابل ذلك الشعر الذاتي الرتيب . وقد دبت الحياة في اللغة التركية على يديه فانبعثت وتطورت ونبضت فيها الرجولة ، وأتت بصوت يحيي لجيل الشباب اليوم ان يقول : انه لي ». وقال صدر الدين ارتام : « وجد ناظم حكمت قناعته في المادية الديالكتيكية التي وضعت الحركة ازاء مبدأ السكون » . ويلاحظ امين بالمن ان « ناظم حكمت ابن نادر المثال لهذه الأمة التي كان أحسن من تغنى بلسانها ، وأحس بعذابها من أعمق أعماقه . انه شديد الاعجاب بتراثها الثقافي الذي يملك خبرة واسعة فيه ، ومثله - وليس لأحد ان يطالبه بحساب عنها - تملأ خياله وقلبه معاً ، وهي تتحرك باتجاه تخليص الانسان من ظلم الانسان ومن البؤس والعبودية »[1] .

---

(١) « ناظم حكمت » لباشين قيا - الطبعة التركية .

وهذه بعض المقاطع من قصائده :

– « ان ننام الآن ،

لنستيقظ بعد مئة عام ، ياحبيبي »

– « لا ،

عصري لايخيفني ولست هارباً .

أنا لم أندم يوماً لكوني أتيت هذا العالم باكراً

انني من القرن العشرين ،

وأنا فخور بذلك .

حسبي ،

ان أكون من القرن العشرين »

ومع الرجال الذين أنا معهم ،

وان أقاتل في سبيل عالم جديد

(من قصيدته :القرن العشرون)

* * *

ان أموت متأرجحاً على طرف حبل ،

فذلك مالايرضيني بأي حال ،

انما ،

كوني على ثقة ياحبيبتي ،

انهم عبثاً سينظرون ،

في عيني ناظم الزرقاوين ،

ليروا مافيهما من خوف ،

اذا ماحاولت يد غجري تعس ،
شبيهة بعنكبوت أسود ،
ان تضع الانشوطة في عنقي .

(من « رسالة الى زوجتي »)

* * *

اجمل البحار ، ذاك الذي لم نذهب اليه بعد ،
وأجمل الأطفال ، من لم يكبر بعد ،
وأجمل ايامنا ، تلك التي لم نعشها بعد ،
وأجمل ماأويد قوله ، ذاك الذي لم أقله بعد .

(من « الرباعيات »)

* * *

وجهه ابيض
والنافذة مفتوحة
والدنيا ليل
والدنيا صيف
وكلانا في الزنزانة ،
وكان يتحدث :
ـ اريد ان يغني اطفالنا ،
حين يعودون متشابكي الايدي ،
من حدائق الاطفال ،
الأغاني التي اغنيها لنفسي .
ان اجمل ماسمعت من اصوات ،
سؤال طفل عن النجوم ،

وهو ينام على ركبتي في ليلة صيف .

(من « رفيقي عثمان »)

* * *

اهلاً بزوجتي اهلاً ،
تعبة أنت ،
فكيف أفعل ؟
لو أردت غسل قدميك ،
فلا ماء ورد عندي ،
ولاطست من ذهب .
وانت عطشى ،
ولاشراب مثلج ، اكرمك به .
وانت جائعة ،
ولامائدة بغطاء كتاني امدها لك .
غرفتي ، مثل وطني ،
اسيرة وفقيرة .
ومنذ وطأت قدماك غرفتي ،
اورق « البيتون » وصار اخضر ،
بعد اربعين عاماً ،
اورق « البيتون » وصار اخضر

(من قصيدة « اهلاً بزوجتي » التي كتبها في السجن)

* * *

انا آت من الشرق .
ابشر ،

بثورة الشرق .
فهيا ، افتح ذراعيك ،
واحتضني .
ايه !
عانقني ،
يامن تغلغل الشوق الى رؤيته .
في حشاي ،
كما يتغلغل الحنين الى الوطن
ايه !
يابلد الرايات الحمر ، اللاهبة كشموس آسيا ،
المتخايلة في رؤى احلامي .
ياسماء الابطال ،
الباعثة السنين الجامحة وسط الدماء .
لقد عبرت ،
دروب آسيا ،
مع الرياح المندفعة الى الشمال ،
ووصلت اليك ،
فهيا ، اسرع ، لاتتأخر ،
اعطني النور لعيني ،
والشعور لرأسي ،
فالذين هناك ،

ينتظرونني ،
وعلي ان اسرع بالعودة اليهم ،
عليّ أن ابدو بقميصي الارجواني بينهم .
(من قصيدته : « شرقي والاتحاد السوفياتي »)

* * *

عزيزي ناظم !
أكتب إليك من حيث أستلقي ،
لانني تعبة .
رأيت اليوم وجهي في المرآة .. انه ممتقع ،
فالهواء بارد ، والصيف لن يأتي ،
وأنا أحتاج حطباً بثلاثين ليرة في الشهر
ولا طاقة لي على ذلك .

* * *

قبل قليل ،
لففت نفسي ببطانية ،
فيها أنا جالسة أشتغل .
الزجاج مكسر ، واطارات النوافذ مخلعة ،
والسكنى هنا غير ممكنة .
عليّ ان أرحل ،
فالبيت سينهار ،
والايجار غال بشكل مذهل .

* * *

لماذا اكتب لك هذه الأمور ؟
ستغتم ،
ولكن لمن أشكي همومي ؟
لاتؤاخذني ،
فاذا كانت النهارات باردة ، باردة جداً ،
فكيف هي الليالي !
لقد ضقت ذرعاً ،
مللت البرد ،
وفي الحلم أرى افريقيا ،
وقد سافرت مرة الى الجزائر .
كان الجو حاراً
واصبت برصاصة في جبهتي ،
فسال دمي كله ،
لكنني لم امت .

* * *

صرت في حال ،
أحس فيها كثيراً بالشيخوخة .
مع انك تعلم
انني لم ابلغ الاربعين بعد
اقول هذا ،
فيغضبون ،

ويلومونني ،
وعلى كل ، لنغلق هذا الحديث .

* * *

سمعت الراديو يذيع
اغاني شعبية من بورغواي .
انها مطروزة على ورق شائك ،
ومجبولة بالغزل ، والشمس ، وعرق الانسان
وكذلك بالجوع ، والامل .
وقد اعجبت بأغاني بورغواي الشعبية

* * *

وصلتني رسالة من علياء ،
وهل ترغب جداً في ان تراني ،
ولا تنساني قط .
وقد احترت في الأمر .
ذلك ان سنوات مرت ،
منذ ان تركت أنت الوطن ،
ولم تطرق علياء بابي ،
ولم تبعث الي بأيما خبر .
ولقد تقابلنا في الشارع ،
صباح عيد ،
فأدارت رأسها ومضت ،

وهي أقرب صديقاتي .
لاغرابة ! الصداقة تشبه الشجرة ،
وحين تيبس الشجرة مرة ،
لاتخضر ثانية .
لقد كتبت اليها جواباً ،
ولكن ماذا يفيد الجواب ؟

* * *

ذهبت الآن وألقيت نظرة على طفلنا
وجهه مورد ، وشعره كستنائي ؛ وهو نائم بهدوء .
وكان الغطاء منشوراً فأعدته .

* * *

لك عندي خبر مفرح :
ابنك التنبل بدأ يتعلم القراءة
وقد نجح فيها شيئاً ما .
فهو يحفظ : امسك ، اركض ، كتاب ، قلم ، محفظة
أليس هذا جميلاً ؟
انه يشبه كل حرف بشيء :
الألف بالمئذنة .
والباء بالكرش
والتاء .. لا أدري بماذا
واني لأخشى ان يصبح تنبلاً كبيراً ،

فاسعى لحمله على الاجتهاد .
ولو كان بنتاً لهان الأمر ،
فالنساء ، من جميع الاعمار ، يصلحن لعمل ما ،
أما صبي مثله ، في الخامسة من عمره ،
ماذا في وسعه أن يعمل ؟

* * *

آه لو يزداد الجو دفئاً .
ان ذلك سيصير يوماً ..
لقد اطلت الرسالة جداً .
إعتن بنفسك ،
واكتب الجواب حالاً
لا تنساني
اكتب الجواب حالاً
ولا تخدعنك نفسك
فتتوهم ان (منور) عاقلة
تدبر كل شيء ..
انا مقصوصة الجناح بدونك
لا تنساني
اعتن بنفسك
اقبلك من عينيك ، يا روحي
ليلة سعيدة ،

اعتن بنفسك ،
جاوبني بسرعة ،
ولا تحمل همومي ،
انساها . .
ولكن لا تنساني .

(من قصيدته « رسالة من اسطنبول » – ١٩٦٥)

* * *

يا رفاقي ، اذا لم يكن من نصيبي رؤية ذلك اليوم ،
اي اذا مت قبل الخلاص ،
فاحملوني الى الاناضول ،
وادفنوني بمقبرة في احدى القرى .

* * *

وليرقد الى جانبي عثمان ، الفلاح المياوم ،
الذي قتله حسن بك .
والى الجانب الآخر ، ليكن قبر الشهيرة عائشة ،
التي ولدت طفلها على الأرض ،
في احد حقول الشيلم
وماتت ولما تقض اربعين النفاس .

* * *

ولتنتشر الجرارات والاغاني على طول المقبرة
ومع خيوط الفجر الاولى ،
لتفعم رائحة الشباب والبنزين المحترق ،

الحقول كلها .
ولتمتلىء اقنية الحقول بالمياه ،
كي لا يكون ، بعد ، خوف من جفاف ،
ولا رعب من درك .

* * *

ولن نسمع نحن ، قطعاً ، هذه الاغاني
فالاموات ، تحت الثرى ، لايسمعون .
انهم صم ، بكم ، عماة ،
كأغصان سود متعفنة ،
ومتمددة على اطوالها .

* * *

أما أنا فقد غنيت هذه الاغاني
حتى قبل ان تنظم ،
وشممت رائحة البنزين المحترق
حتى قبل ان تصمم الجرارات .
ولكن جارتي ،
عائشة الشهوة
وعثمان ، الفلاح المياوم ،
فقد تحسرا عليها ، في حياتها ، طويلاً ،
وربما دون ان يدركا الفارق .

* * *

فيا رفاقي ،
اذا مت قبل ان يأتي ذلك اليوم ،
وهذا واضح بالنسبة الي ،
فادفنوني بمقبرة في احدى قرى الأناضول .
واذا امكن ، فان غرسة فوقي تكفي ،
ولا حاجة للشاهدة والحجارة على قبري .

أضواء على الاقتصاد العربي في جامعة الدول العربية

يحيى عرودكي

مع تطور الأحداث السياسية في العالم والتقدم التقني الذي حققته الانسانية بعد الحرب العالمية الثانية ، يزداد اهتمام الشعوب بالمؤسسات الدولية والاقليمية ، ويزداد تطلعها الى دعم هذه المؤسسات لتحقق الأهداف التي انشئت من أجلها. وجامعة الدول العربية ، باعتبارها واحـــدة من تلك المؤسسات ، في منطقة هامة من العالم هي منطقة الشرق الاوسط ، وباعتبارها تضم في عضويتها مجموعـة الدول العربية التي حصل بعضهـا على استقلاله قبل قيام هذه المنظمة بوقت قصير ،

وبعضها الآخر بعد ذلك ، وبما كانت المؤسسة الاقليمية التي لم تحظ بالاهتمام والدعم الكافيين من قبل الدول الأعضاء فيها ، مما حال بينها وبين بلوغ اهدافها في التطور والسير نحو الأفضل بحيث تصبح ذات أثر في الاحداث العالمية من جهة ، وتسهم بتطوير وتقدم بلدان الدول الأطراف من جهة أخرى .

وهذا الوضع جعل المنظمة المذكورة في كثير من الأحيـــان عرضة للانتقاد من أعدائها ومؤيديها على السواء ، ذلك أن هؤلاء وأولئك لايرون في عدم نجاح هذه المؤسسة في تحقيق نوع من الوحدة او الاتحاد السياسي بين مجموعة الدول الأعضاء فيها سبباً يحول دون تحقيق خطوات ملموسة في مجالات التعاون الاقتصادي بل في تحقيق الوحدة الاقتصادية وقيام سوق مشتركة بين هذه الدول .

ولعل في القاء الأضواء على نصوص ميثاق جامعة الدول العربية وماتضمنه من مبادىء وأهداف في اطـــار التعاون الاقتصادي ثم التعرف على الظروف والأوضاع والامكانيات الاقتصادية لدى بلدان الدول الأعضاء ما يساعد على ايضاح مواطن النجاح أو التقصير الذي حققته الجامعة في المجال الاقتصادي .

الأهداف الاقتصادية في الميثاق :

نص ميثـاق جامعة الدول العربية في مادته الثانيـة على أن الغرض من الجامعة هو توثيق الصلات بين الدول المشتركة فيها وتنسيق خططها السياسية تحقيقاً للتعاون بينها وصيانة لاستقلالها وسيادتها والنظر بصفة عامة في شؤون البلاد العربية ومصالحها ، وذلك بالاضافة الى تعـاون الدول المشتركة فيها تعاوناً وثيقاً بحسب نظم كل دولة منها وأحوالهـــا في عدد من الشؤون يأتي في مقدمتها الشؤون الاقتصادية والمالية التي تتناول فيما تتناوله التبادل التجاري والجمارك والعملة وأمور الزراعة والصناعة .

ونص الميثاق على أن توضع قواعد هذا التعاون ومداه بشكل مشاريع اتفاقات تعرض على مجلس الجامعة تمهيداً لعرضها على الدول الأعضاء . وأناط باللجان الخاصة التي يقتضي تأليفها لهذه الغاية من ممثلي تلك الدول وضع تلك القواعد وتحديد مدى التعاون الذي تقترحه .

على أن الميثاق لم يقف حائلاً بين الدول الأعضاء الراغبة فيما بينها بتعاون أوثق وروابط أقوى مما نص عليه الميثاق ، فأجاز لها أن تعقد بينها من الاتفاقات ما تشاء لتحقيق هذه الأغراض .

ومن ناحية أخرى فقد نص الميثاق على أن من مهام مجلس الجامعة تقرير وسائل التعاون مع الهيئات الدولية التي قد تنشأ في المستقبل لكفالة الأمن والسلام وتنظيم العلاقات الاقتصادية والاجتماعية .

ومن خلال هذه الأهداف التي جاء الميثاق على ذكرها في مجال التعاون الاقتصادي بين الدول الأعضاء يمكن تبسيط واقع الجامعة وامكانياتها في ذلك المجال بالآتي :

١ - استهدف الميثاق توثيق الصلات بين الدول العربية المنضمة اليه دون أن يلزمها أو يقيدها بنوع أو شكل معين من التعـــاون ، ودون أن يشير الى موضوع الوحدة أو الاتحاد على الصعيدين السياسي أو الاقتصادي بين تلك الدول .

٢ - فتح الميثاق الباب أمام اللجان المختصة التي تؤلف لكل من الشؤون التي يمكن للدول الاعضاء ان تتعاون فيما بينها من خلالهـــا ، لتقييد أو توسيع مجالات التعاون وأساليبه تبعاً للحرية التي أعطيت لها في وضع قواعد هذا التعاون ومداه .

٣ ـ حدد الميثاق طريقة وضع قواعد التعاون بين الدول الاعضاء ومداه بشكل مشاريع اتفاقات تعرض على مجلس الجامعـــة تمهيداً لعرضها على الدول الأعضاء ، وبذلك يكون قد استبعد ان تكون بشكل قرارات يصدرها المجلس المذكور وتلتزم بتنفيذها الدول الاعضاء ، كي يتفادى اي تحول او رغبة في تطويل أو تعقيد الخطوات التي تقترحهـــا اللجان المختصة لتوثيق التعاون بين تلك الدول .

وواضح مما تقدم ان نصوص الميثاق جاءت عامة ومرنة ، فهي تتيح توثيق التعاون بين الدول العربية الى ابعد مدى ، كما تتيح أن يتقلص ويضيق حتى ليصل الى حالة الجمود .

وإن من يرجع الى محاضر الاجتماعـــات التي جرت عند اعداد مشروع الميثاق واثناء مناقشته من قبل ممثلي الدول العربية ليشعر بأن نصوص الميثاق في وضعها الحالي انما تعبر بشكل واضح عن طبيعة الاوضاع السياسية والظروف التي كانت تعيشها الدول العربية عند تنظيم الميثاق واقراره .

ومن الطبيعي ان تأتي الخطوات التي حققتها جامعة الدول العربية في النواحي الاقتصادية منذ تأسيسها حتى الآن انعكاساً لنصوص ميثاقها وللاوضاع السياسية السائدة في العالم العربي والعلاقات غير المستقرة بين دوله وفي المنطقة بصورة عامة .

ما هي الخطوات التي حققتها الجامعة في المجالات الاقتصادية ؟؟

تبدى الانجازات التي حققتها جامعة الدول العربية في مجالات توثيق التعاون الاقتصادي العربي وصيانة المصالح الاقتصادية للدول الاعضاء فيما يلي :

١ ـ الاتفاقات الجماعية التي عقدت بين عدد من الدول الاعضاء والتي تستهدف تسهيل التبادل التجاري وانشاء مشاريع مشتركة وتنسيق بعض السياسات الاقتصادية بما سنأتي على تفصيله فيما بعد .

٢ ـ الادارات والهيئات الاقتصادية التي احدثت تنفيذاً لأهداف ميثاق الجامعة او انبثقت عن الاتفاقات الجماعية الآنفة الذكر .

ويلاحظ لأول نظرة في هذه الانجازات ان مجلس الجامعة قد استطاع ان يقدم للدول الاعضاء عدداً لا بأس به من الاتفاقات الجماعية الا أنه لم يستطع ان يضع منها موضع التنفيذ سوى عدد محدود .

كما ان الادارات والهيئات التي قامت بعد ظهور الجامعة لم تستطع ان تقوم بالمهام الموكولة اليها بصورة كاملة وعلى الوجه المرجو منها .

وفي رأينا ان مرد ذلك كله انما يتعلق بالاسباب التي سبق ان اشرنا اليها والتي ترتبط بالاوضاع السائدة في الوطن العربي والعلاقات غير المستقرة بين دوله وفي المنطقة بصورة عامة .

الاتفاقات الجماعية لدول الجامعة العربية :

١ – اتفاقية تسهيل التبادل التجاري وتنظيم تجارة الترانزيت بين دول الجامعة :

عرضت هذه الاتفاقية على الدول الاعضاء في عام ١٩٥٣ وانضم اليها حتى الآن كل من الأردن ، العراق ، العربية المتحدة ، العربية السورية ، العربية السعودية ، لبنان ، الكويت ، اليمن .

وقد نصت الاتفاقية المذكورة على اعفاء مجموعة من السلع والمنتجات الزراعية والحيوانية والثروات الطبيعية من منتجات الدول الاعضاء من الرسوم الجمركية عند تبادلها بين هذه الدول .

كما تضمنت تخفيض الرسوم الجمركية بمعدل ٢٥ ٪ أو ٥٠ ٪ لبعض السلع والمنتجات الصناعية من منتجات الدول الأعضاء وذلك من التعرفة العادية المطبقة في الدولة المستوردة .

٢ – اتفاقية الوحدة الاقتصادية العربية والسوق العربية المشتركة :

عرضت هذه الاتفاقية على الدول الأعضاء في الجامعة للتوقيع عليها بتاريخ ١٩٦٢/٦/٦ وذلك بعد دراسات طويلة امتدت منذ عام ١٩٥٧ عندما ظهرت السوق الأوربية المشتركة للوجود ، وكان البحث في البداية يتناول موضوع اقامة تكتل اقتصادي عربي على شكل سوق مشتركة لمواجهة التكتل الأوربي الآنف الذكر وما توقعته الدول العربية من انضمام اسرائيل له .

وقد اصبحت اتفاقية الوحدة الاقتصادية نافذة المفعول بين كل من

الدول العربية التالية : الاردن ، العراق ، العربية السورية ، العربية المتحدة ، الكويت ، اليمن الجمهوري اعتباراً من شهر مايس ١٩٦٤

تهدف هذه الاتفاقية الى تحقيق قيام وحـــدة اقتصادية كاملة بين الدول الأعضاء على قدم المساواة وذلك على مراحل سنوية لاتتجاوز العشر سنوات بحيث تضمن لهذه الدول ولرعاياها :

- حرية انتقال الاشخاص ورؤوس الأموال .
- حرية تبادل البضائع والمنتجات الوطنية والاجنبية .
- حرية الاقامة والعمل والاستخدام وممارسة النشاط الاقتصادي .
- حرية النقـــل والترانزيت واستعمال وسائل النقل والمرافىء والمطارات المدنية .
- حقوق التملك والايصاء والارث .

والتزمت الدول الاعضاء بألا تصدر في أراضيهـــا أية قوانين أو انظمة أو قرارات ادارية تتعارض في أحكامهـــا مع اتفاقية الوحـدة الاقتصادية العربية وملاحقها .

كما تضمنت الاتفاقية في موادها العديدة تحديد الجهة المسؤولة عن الاشراف على تطبيق القرارات التي يصدرها المجلس وكذلك تحديد طريقـــة الانضمام للاتفاقية أو الانسحاب منها وأمور عقد الاتفاقات التجارية واتفاقات المدفوعات بين الدول الأعضاء والدول الاخرى .

وقضت هذه الاتفاقية باحداث مجلس من ممثلي الدول الاعضاء يتولى الاشراف على تنفيذ هذه الاتفاقية .

وكان من أهم ما اتخذه مجلس الوحدة الاقتصادية من قرارات ، قرار

احداث السوق العربية المشتركة كمرحلة من مراحل تحقيق الوحدة الاقتصادية بين الدول الأعضاء . وقد تضمن هذا القرار مجموعة من الأسس والمبادىء التي التي تقوم عليها السوق نوجزها بالآتي :

أ - العمل على تحقيق الأهداف الاربعة الأولى التي جاء ذكرها عند بحث الأهداف التي نصت عليها اتفاقية الوحدة الاقتصادية العربية .

ب - اشتراط الانضمام لاتفاقية الوحدة الاقتصادية العربية من أجل قبول اعضاء جدد في السوق العربية المشتركة .

جـ - اعفيت المنتجات الزراعية والحيوانية والثروات الطبيعية الواردة في الجدول الملحق باتفاقية تسهيل التبادل التجاري بين دول الجامعة العربية من الرسوم الجمركية والرسوم والضرائب الأخرى اذا كان منشؤها احد بلدان الدول الأعضاء ومستوردة مباشرة منه الى بلد عضو آخر . أما بقيـة المنتجات الآنفة الذكر فانها تتمتع بتخفيض في الرسوم الجمركية والرسوم والضرائب الأخرى قدره (٢٠٪) سنوياً .

د - منحت المنتجات الصناعية التي منشؤها أحد بلدان الدول الاعضاء والمصدرة مباشرة منه الى الدول الأعضاء الأخرى تخفيضاً سنوياً قدره (١٠٪) من الرسوم الجمركية والرسوم والضرائب الأخرى بدءاً من مطلع عام ١٩٦٥ واذا كانت المنتجات من الأنواع التي تستفيد من التخفيضات المنصوص عليها في اتفاقية تسهيل التبادل التجاري بين دول الجامعة العربية فتستفيد عندئذ من مجموع التخفيضات السابقة والجديدة .

هـ - تبنت لدى مجلس الوحدة الاقتصادية العربيـة القيود الادارية ومختلف الرسوم والضرائب المفروضة على الاستيراد والتصدير المطبقة لدى كل

منهـــا بتاريخ ١٩٦٤/٨/١٣ وهو تاريخ انشاء السوق ، وحرم على الدول الأعضاء فرض رسوم أو ضريبة أو قيد جديد أو زيادة الرسوم والضرائب والقيود المفروضة على المبادلات التجارية بين هـــذه الدول ، وكذلك فرض رسوم أو ضرائب داخليـة على المنتجات الزراعية والحيوانيـة والصناعية والثروات الطبيعيـــة من منتجـات الدول الأعضاء تفوق الرسوم أو الضرائب الداخلية المفروضة على المنتجات المحليـة المماثلة أو على موارد‌ها الأولية .

واعفيت جميع المنتجات الوطنية المتبادلة بين الدول الأطراف من اي رسم جمركي على التصدير .

و ـ حظر منح أي دعم من قبل أي من الدول الاعضاء لصادراتها الى الدول الأعضاء الأخرى عندما يكون هناك انتاج مماثل في البلد المستورد للسلعة المدعومة .

ز ـ عدم جواز اعادة تصدير المنتجات المتبادلة بين الدول الاعضاء الى خارج السوق الا بعد الحصول على موافقة الدولة المصدرة ما لم يكن قد جرى على هذه المنتجات عمليات تحويل صناعية تكسبها صفة المنتجات الصناعية المحليـة في الدولة المستوردة .

أما في مجالات تنفيذ احكام السوق العربية المشتركة الآنفة الذكر فقد تم تطبيق الاعفاءات والتخفيضات على منتجات الدول الأعضاء عند تبادلها فيما بينها طبقاً للمعدلات والأسس التي أوردناها أعلاه ، الا أن هذه المبادلات كانت تصطدم دوماً بالقيود الادارية المفروضة لدى بعض الدول الأعضاء وخاصة تلك التي تطبق نظام الحصص في الاستيراد .

ومع ذلك فقد حققت المبادلات التجارية بين الدول الأعضاء في السوق زيادة ملموسة عما كانت عليه قبل تطبيق احكام السوق ، ولعل عدم استكمال كافة الاجراءات والترتيبات لاكتمال السوق ، وعدم قطع كامل مراحلها من الأسباب التي لاتجيز القطع برأي مبرم حول مايمكن ان تؤديه اتفاقية الوحدة الاقتصادية العربية من فوائد لمصلحة الاقتصاديات العربية على ضوء النتائج التي حققتها حتى الآن .

وتجدر الاشارة الى أن مجلس الوحدة الاقتصادية العربية قد أقر مؤخراً احداث اتحاد للمدفوعات بين الدول الاعضاء من شأنه تسوية المدفوعات الخاصة بالسلع والخدمات المتبادلة بين هذه الدول . كما أقر تخفيض مراحل التدرج في التخفيضات في الرسوم الجمركية والرسوم والضرائب الأخرى وفي التحرير من القيود الادارية ، بحيث أصبح اكتمال قيام السوق العربية المشتركة قبل الموعد المحدد لها بنحو سنتين أي في مطلع عام ١٩٧٣ بعد أن كان في مطلع عام ١٩٧٥ .

٣ ــ بالاضافة الى الإتفاقيتين السالفتي الذكر اللتين وضعتا موضع التنفيذ فقد عقدت في نطاق جامعة الدول العربية مجموعة أخرى من الاتفاقيات التي لم يقدر لها أن توضع موضع التنفيذ حتى الآن لسبب ظاهري يتجلى بعدم مباشرة عدد من الدول الأعضاء فيها بابرامها أو تسديد حصتها في المساهمات التي تعهدت بتغطيتها ولأسباب أخرى تتلخص بعدم دراسة المشاريع التي عقدت تلك الاتفاقات من أجلها دراسة كافية ، ولكون الرغبة في اظهار نشاط الجامعة العربية ولو في اطار الدعاية هي الدافع للاسراع بعقد تلك الاتفاقيات ، هذا الى جانب الخلافات التي تبدت في اطار العلاقات السياسية بين العديد من

الدول الأعضاء في الجامعة والتي لعبت دوراً رئيسياً في تجميد تلك الاتفاقيات .

العوامل المؤثرة في التعاون الاقتصادي العربي :

من البدهي أن تثير الأوضاع التي تعرضنا اليها فيما سبق التساؤل عن العوامل المؤثرة في إمكان تطوير التعاون الاقتصادي بين الدول العربية ، وفي اعتقادنا أن هذه العوامل تنبع من طبيعة وظروف الوطن العربي ومن التطورات التاريخية والسياسية التي مرت بها أقطاره . ويأتي في مقدمة هذه العوامل الآتي :

١ - الموقع الجغرافي الممتاز الذي تحتله مجموعة البلدان العربية بين المحيط الاطلسي في الغرب والخليج العربي في الشرق ، وبين ثلاث قارات كبرى هي آسيا واوربا وافريقيا .

٢ - توفر الثروات الطبيعية والامكانات البشرية والعوامل المناخية الملائمة في الاقطار العربية لتطوير الاقتصاد الوطني لهـــذه الاقطار واللحاق بركب الامم المتقدمة .

٣ - كون مجموعة الاقطار العربية من البلدان النامية ، وعدم وجود فوارق كبيرة فيما بينها من حيث مستويات التقدم التقني والعلمي ، مما يسهم في امكان قيام تنسيق وتكامل اقتصادي فيما بينها .

٤ - توفر رؤوس الاموال اللازمة للاستثمارات التي تتطلبها عملية التنمية الاقتصادية في البلدان العربية .

٥ - كون معظم الدول العربية حديثة الاستقلال عند قيام جامعة الدول

العربية ، مما أوجد لدى بعضها شعوراً بالرهبة من اية خطوات وحدوية من الممكن أن تحرمها من كيانها المستقل وتضمها الى كيان جديد اوسع ، لم يكن بالمستطاع في حينه تقدير فوائده ومستقبله وأبعاده .

٦ – كون بعض الدول العربية لايزال مرتبطاً باتفاقات ومعاهدات مع الدول التي كانت تسيطر عليه قبل استقلاله او تلك ذات النفوذ في منطقته تربط الى حد ما اقتصادياته باقتصادياتها ، وتقيد حريته في تصريف شؤونه الاقتصادية وفق حاجاته ومصالحه القومية بعيداً عن كل ضغط .

٧ – عدم توفر الاطارات الفنية الكافية لدى معظم الدول العربية لكي تتحمل الأعباء والمهام التي يستوجبها تنفيذ برامج التنمية على الوجه الصحيح وبشكل منتظم عندما يصبح تحقيق خطوات واسعة في مجال التعاون الاقتصادي بين الدول العربية أمراً ثابتاً .

٨ – اتفاق مصالح مختلف الدول الاستعمارية على وجوب استثمار خيرات الوطن العربي واستغلالها بعيداً عن مصالح الجماهير العربية ، وعلى إبقاء شعوب الأمة العربية مرتبطة بتلك الدول تبعاً لاتفاقات توزيع مناطق النفوذ في العالم بين الدول الكبرى .

مستقبل الاقتصاد العربي في جامعة الدول العربية:

اذا كان الحديث عن المستقبل عادة يعتبر ضرباً من التكهن ومن قبيل الفرضيات ، إلا أنه في ظل عدد من الحقائق الثابتة عن واقع الوطن العربي وإمكانياته يستطيع المرء ان يضع بعض الخطوط التي تكون ملامح المستقبل دون ان تتقاذفه مشاعر الخيبة أو يدور في دوامة الأحلام ، ويمكن ايجاز هذه الحقائق بالآتي :

١ — إن الوحدة العربية بين أجزاء الوطن العربي الكبير التي تنادي بها شعوب الأمة العربية والتي ضحت مختلف هذه الشعوب بالكثير من دماء ابنائها واموالها في سبيل بلوغها إنما هي حقيقة ثابتة تعيش في ضمير كل عربي ، لأن لهذه الشعوب من مقومات الامة الواحدة كالتاريخ واللغـــة والعادات والمصالح الاقتصادية والاجتماعية المتشابكة جذوراً عميقة تجعل جميع الفوارق المصطنعةالتي أقامها الاستعمار وتسعى الصهيونية لترسيخها في اقطار الوطن العربي عرضيةزائفة تزول جميعها بيقظة الوجدان العربي في تلك الاقطار وتكاتفها لمواجهة تلك القوى التي تقف دون بلوغ غايته الكبرى في الوحدة العربية .

٢ — إن اقتصاديات الوطن العربي هي اقتصاديات زراعية حتى الآن على الرغم من قيام بعض الصناعات في عدد من اقطاره دون الاقطار الاخرى . وعلى
الرغم من قيام بعض الصناعات في عدد من أقطاره دون الاقطار الاخرى . وعلى
الرغم من أن التطور الاقتصادي والاجتماعي قد سار خطوات في بعضها دون بعضها الآخر .

٣ — إن الحياة الاجتماعية في معظمهـــا لاتزال تشكو نفس العلل من المرض والجهل والحرمان التي تشكو منها الاقطار العربية الاخرى.

٤ — ان معظم الاقطار العربية حتى الحرب العالمية الأولى كانت تشكل وحدة اقتصادية تحت سيطرة الدولة العثمانية وان هذه الوحدة قد تفتت في أعقاب هذه الحرب نتيجة تآمر الدول الاستعمارية ، وأصبحت المبادلات التجاريةبين هذه الاقطار تصطدم بالحواجز الجمركية والقيود الادارية التي أقيمت نتيجة ذلك .

٥ — إن قيام جامعة الدول العربية في عام ١٩٤٥ كان فاتحة عهد جديد لم شعث الاقطار العربية وتعاونها في مجالات مختلفة ، وان اتفاقية تسهيل التبادل

التجاري وتنظيم تجارة الترانزيت التي وضعت عام ١٩٥٣ في نطاق الجامعة كانت من أولى الخطوات في سبيل زيادة المبادلات التجارية بين الدول الأعضاء المنضمة إليها والتغلب على الصعوبات التي اصطدمت بها هذه المبادلات بعد الحرب العالمية الأولى وقيام كيانات عربية متعددة في الوطن العربي .

٦ ـ إن قيام تكتلات اقتصادية في انحاء عديدة من العالم بعد الحرب العالمية الثانية كالسوق الاوروبية المشتركة ومنطقة التبادل الحر وكتلة الدول اللاتينية ، ومنظمة التعاون الاقتصادي بين الدول الاشتراكية (كوميكون) ثم منظمة الوحدة الافريقية ، كان يستدعي بالضرورة أن تسارع الدول العربية لإقامة تكتل اقتصادي عربي توجته بعد دراسات ونقاش طويلين بإبرام اتفاقية الوحدة الاقتصادية بين عدد محدود من بلدانها .

هذه الحقائق وغيرها تشير بجلاء الى ضرورة الإسراع والمثابرة بتحقيق أقصى مايمكن من خطوات التعاون بين الاقطار العربية في جميع المجالات وخاصة في المجالات الاقتصادية ، والعمل بشكل دائب ومثمر وبطريق علمي صحيح بعيد عن الأهواء والعواطف لجعل الوحدة الاقتصادية العربية حقيقة لا شعارات ، ولتجاوز الصعوبات التي تصادفهـــا السوق العربية المشتركة والقرارات التي سبق للمجلس الاقتصادي العربي ولمجلس الوحدة الاقتصادية العربية أن اتخذها في مجالات تدعيم التعاون الاقتصادي العربي وتحقيق الأهداف التي نصت عليها اتفاقية الوحدة الاقتصادية العربية والتي سوف يكون من شأن تنفيذهـــا تحقيق أقصى الفوائد وأفضلها لاقتصاديات كل من الاقطار العربية بصرف النظر عن المصالح الاقليمية المؤقتة باعتبار أن من شأن هذه الفوائد تحقيق الآتي :

١ ـ خلق سوق واسعة تستطيع ان تستوعب انتاج مختلف الاقطار

٥ ✱

بكل يسر وسهولة ودون ان تصطدم بالحواجز الجمركية من جهة ودون ان تتمكن المنتجات الأجنبية من مزاحمتها من جهة أخرى بما تهيؤه هذه السوق من الظروف والإمكانات المواتية لتخفيض تكاليف الانتاج وسهولة تبادله .

٢ – إفساح المجال لإقامة صناعات كبرى في أرجاء الوطن العربي تبعاً للتخصص النسبي والكيفي بين أقطاره بحيث يمكن عن هذا الطريق الاستفادة من خصائص الانتاج الكبير ومردوده .

٣ – تهيئة الفرص المواتية أمام المنتجات العربية التي تتألف بمعظمها من الانتاج الزراعي والحيواني كالحبوب والحمضيات والخضار والثار والقطن والجلود والصوف الخ .. ليتم تسويقها بشكل مشترك وبأسعار ملائمة بدلاً من إفساح المجال أمام البلدان الاخرى لشرائها بصورة متفرقة من كل قطر بأقل من أسعارها الحقيقية .

٤ – جعل سوق العمل واليد العاملة قادرة على القضاء على البطالة التي تشكو منها بعض الاقطار العربية ، وكذلك التنسيق بين مستويات الاجور في تلك الاقطار للحاولة دون تفاوت كلف الانتاج بشكل بين .

٥ – إيجاد التعادل في كثافة السكان بين مختلف أجزاء الوطن العربي بما يؤمن الاستثمار الصحيح للأراضي الزراعية فيها .

٦ – إفساح المجال أمام رؤوس الأموال العربيـــة المتوفرة في بعض الاقطار لتوضع في استثمارات رابحة في الاقطار الاخرى التي هي بحاجة اليها .

٧ – إزالة الفروق في مستويات التعليم في أرجاء الوطن العربي وتهيئة الاطارات اللازمة المتمتعة بالكفاءة والخبرة المناسبتين لاشغال الوظائف والاعمال التي تحتاجها في مختلف الاقطار العربية .

٨ ـ تمكين البلدان العربية من تنفيذ خطط التنمية الاقتصادية التي تتعثر في بعضها نتيجة الظروف الاقتصادية التي تواجهها .

٩ ـ وكذلك تمكينها من أن تواجه بمجتمعه باقتصاد قوي وكامل ومنسق التكتلات الاقتصادية الأخرى في العالم الخارجي وتعمل على عدم إفساح المجال أمامها للسيطرة على اقتصاديات البلدان العربية .

١٠ ـ توفير الامكانات الاقتصادية العربية الهائلة وتنسيقها بما يؤمن الدرع الواقي لجيوش الدول العربية الرابضة على خطوط النار في مواجهة العدو الصهيوني والقوى الاستعمارية المؤيدة له .

وفي اعتقادنا أن ماأصاب الأمة العربية من انتكاسات في ربع القرن الماضي وخاصة ماجرى في حرب حزيران ١٩٦٧ وما تبعها من وضوح المطامع الاستعمارية والصهيونية جدير بأن يفتح العيون والآذان على تلك الحقائق وعلى النتائج المثلى التي بإمكان القوى العربية الراغبة في مستقبل أفضل أن تبلغها ، اذا أفسحت المجال للمصلحة العربية العليا أن تكون دوماً مقدمة على ما سواها من المصالح والمنافع ، واذا ماعملت تلك القوى بجهد وعزم أكيدين في سبيل تلك المصلحة بحدوها دوماً الأمل الكبير في بلوغ الوحدة العربية الشاملة .

القصة

الصيد وحكايا البشر

حيدر حيدر

وراء المدينة كهل مولود قبل الدهور ، يعيش في كهف عتيق ،التقيت به وأنا عائد من رحلة صيد. في وجهه سمات القدم ، وخلف بحر عينيه الصافيتين يقوم جلال السنين والمهابة .

ـ سلاماً ايها المحترم . قلت .

خيل إلي أنه رمقني من زاوية عينيه وأومأ مجيباً .

كانت رحلتي مضنية . التعب افرغ اعصابي من القدرة على المسير ، والعطش نبت في الحشاشة فأيبس العروق . سألته :

ـ ماء جدي . ألديك ما يبل الريق ؟

نحو أجمة سنديان صغيرة ، رنا دون ان ينبس . تحركت نحوها فاذا بزمزمية يقطين مملوءة بماء قراح .

شربت كما يشرب صياد قذف منذ الصباح ساعات بمضة تحت الهجير ، في سفوح وودبان غارت ينابيعها .

على صخرة كبساط مستدير استوى الشيخ . امامه كتاب قديم ،مهلهل الصفحات ، اصفرها . لكنه فسيح كالسهول . بعد ان شربت استلقيت قرب بوابة الكهف فشعرت بحرارة الأرض ، وبالرهبة ايضاً .

ـ لماذا هو صامت ؟ قالت النفس . وقالت ايضاً : ربما كان من أولئك الذين حكت لي جدتي عنهم .

تذكرت حكاياها وأساطيرها القديمة التي كانت ترويها لي في العشيات : كهوف نائية مهجورة خلف مدائن الانسان ، تحت في الصخر ، يعيش فيها بشر عافوا المدن . غادروا اجسادهم واكتفوا بالمن والسلوى ينزل عليهم من ضمير الغيب . عمرو آلاف السنين . كانت ارواحهم تغادر العالم متى شيء لهـــا ، ثم تعود كخطف البصر .

كنت انذهل وهي تروي لي فأقول : جدتي أليسوا آلهة ؟ اذذاك تنهرني قائلة : حاشا .. هؤلاء ياصغيري الاشخاص النورانيون .

وأصمت مرتعداً من الخوف ، لكنني كنت اغتاظ لعجزي عن التمييز بين الله والنوراني .

ـ خلال تيار الذكرى انتابني الارتعاد القديم نفسه . تمالكت وهمست : لابد ان يكون منهم !

ـ عمي الشيخ هل لك أرض هنا ؟ تمالكت وسألته .

تخيلته يرفع إلي عينيه البارزتين ، ثم يشير الى السهول والجبال المترامية ثم يتابع القراءة في كتابه العظيم . مذ كنت صغيراً وأنا أدس انفي في الامور الكبيرة التي اسمتها تلك الجدة : الامور المحرمة .

كثيراً ما كانت تهول لي العقاب ، وعندما كنت اسألها :

جدتي : الإله . أليس بشراً مثلنا ؟

كانت تستشيط غضباً ، وتتهمني بان روحي شريرة ، وانني استحق الجلد لمثل هذه الاسئلة .

ويوماً احرجتها : جدتي . لماذا لاينزل الرب على الارض ليرى فواجع البشر ، يعيش بين العباد وينسف الشرور ؟ قفزت كمجنونة وسدت لي فمي ، ثم صفعتني على وجهي وراحت تتمتم : استغفر الله . استغفر الله . لاتؤاخـذه يارب . ثم انهمرت دموعها ، ومالبثت ان احتضنتني وطوقتني بجدب لافة ذراعيها وثوبها الرث حول جسدي ، وهي ترتعد فرقاً من صاعقة ستنزل على بيتنا وتحرقه .

في تلك الليلة حمتني جدتي من الصاعقة ، لكن الصاعقة نزلت فوق بيت جيراننا الفقراء ، وقتلت اطفالاً ليسوا شياطيناً ولا يثيرون اسئلة محرمة .

مع الزمن عوقبت بموت جدتي . ما عادت تروي لي حكايا وتعلمت أنا الصيد .

عندما عاود الشيخ قراءته وتضفر بالصمت ، انتابني الاحساس الابليسي القديم ، فصممت ان احرج الشيخ بالحكايا :

الجبال كما ترى ياجدي قاسية هناك ، تطارد الارانب والتعب يطاردك ، وعندما توشك على الهلاك يفجؤك الصيد ، لكن الريق يكون قد جف واليد خانها التوازن ، على العيون يتصبب العرق ويحرها ، وهكذا تضيع الطلقات في

الفراغ البري. تصورت انني امشحت الصمت عنه ان لم تكن روحه قد غادرته.
استهوتني الحكايا فتابعت: أنا صياد باجدي من قديم الزمان. صدت الارانب والوعول والخنازير، واطلقت رصاصي على الذئاب والثعالب والنمور، ولم اوفر طيور الحجل والسنونو، حتى أصغر العصافير المغردة، وعلى قدمي هاتين مشيت آلاف الكيلو مترات، لحست الندى وأكلت حبات البطم المرة، وفوق نتوءات الصخور تحت الشمس الحادة، هويت من الاجهاد.

جلدي شوته الأشعة فاكمد من سفعها، واطبق الليل علي في رحلات بعيدة، فكنت آوي الى جحور الثعالب، اتكور داخلها وأنام. رمقته وأنا اداعب ذرات التراب الساخنة ثم افتتها. كان صامتاً كالحجر: لماذا يصمت؟ قلت في سري.

كان الكتاب مفروشاً فوق ركبتيه، وقد تقرفص كمكبل وتدت اليه في استدارة الصخرة، فبدا منعزلاً يشاهد المسافرين بلا حراك.

كانت نظراته محجرة في وجهي فسألته: ايها الجليل هل لك بسيجارة؟
استوقفتني اشارة دهشة خيل إلي انني لمحتهـــا بين حاجبيه فانكفأت.
اشعلت لفافتي، وظلت نظراته مصوبة الى صدري، وأكملت كالمأخوذ اعترافاتي: تحول الصيد هوساً. رسا في وهاد النفس. صار حياة ومصيراً. المهم ان تقتل وينتثر الدم، الصياد لا يهمه إلا أن تشرق الشمس فوق مذابحه. ألم تجرب القتل باجدي ولو لمرة واحدة؟

صدقني ليس هناك اروع من منظر حي تُستلّ منه الروح وهو ينتفض فوق الارض.

اسمع هذه الحادثة المثيرة، ولتقل ما تشاء عنا نحن السفاحين الذين التبست

عليهم الامور المحرمة فتاهوا في بوادي الرب يقتلون بلا رحمة :

ذات فجر ندي همت وحدي في الجبال الوعرة . وكما يحدث في جميع الرحلات : التعب ، العطش ، القيظ الحارق ، ومن ثم اليأس .

حتى الغروب لم اطلق طلقة . كانت البراري مقفرة لكأن احياءها هجروها . فجأة رأيتني اعبر مضيقاً ، على جانبيه تسامقت صخور مسننة ، وكان قلبي يخفق،احسسته يكاد يخرج من صدري ، وكانت الارض تلتهب تحت قدمي .

لست ادري اية لعنة رمت ذلك الارنب في طريقي . ارنب صغير نط من اجمة ثم ما لبث ان توقف وغرس عينيه في عيني : لماذاتحدق في ياسيدي العظيم ، ألانا آثم في شرعك ؟

لا ادري سوى ان ماحدث كان ومضة . قبل ان يهرب الارنب سددت نحوه وضغطت الزناد . تدحرج القرخ فوق الغبار ودوى الوادي . مرة اخرى انهمرت الطلقات على جسد الصغير وهو يختلج .

مرة ، ومرّة ، ومرّة . وفي دوار المحموم المستثار ، المرمي وحيداً في جحيم البراري ، رحت اطلق . تمزق الجلد واللحم وهمد اختلاج الارنب .

لن انسى ما حييت تلك الكوى الارجوانية في جسده المدد الخامد .

اتعرف المسافة بيني وبينه ؟ كالمسافة بيننا الآن !

قل لي سيدي هل لامثالي غفران ؟

في وجه الشيخ لم تختلج عضلة . بدا وكأنه اعتاد هذه الحكايا .

لم يتزحزح كأنما ملايين الحكايا ترويءله كل يوم ثم تعبر كالصدى ، والشيخ سامر الاحياء وعزاء المسافرين منصت لا يريم . وتستمر الحكايا .

سألته فجأة : سيدي هل انت في هذه الضواحي من امد بعيد ؟

تخيلت رأسه يهتز الى الامام هزات رتيبة ثم يعود الى ثباته الاولي .

وقلت لنفسي : ربما من قبل ان اولد وأتعلم الصيد .

واذ استمر في قراءة كتابه القديم همست : قد يكون عن حكمة الاقدمين علمه الكثير عن اسرار البشر ، وهو هنا يزوّد الغادين والبادين الاقدمين بالماء والحكمة . ولكن هذا الصمت العجيب ؟

بعد ان اشعلت لفافة اخرى قررت اثارته بالبوح بسري الذي حفظته لنفسي سنين طويلة :

الارنب الذي قتلته ياشيخي كان انساناً . قتلته للتشفي ، ولم يحدث ذلك في برية انما في باحة محاطة بالاسلاك الشائكة . اكثر من الفي بشري شاهدوني اقتله .

في يوم قائظ كنت سجيناً في قفص من الصفيح ، وكان القفص محاطاً بمئات الصيادين وقد تأهبوا ببنادقهم المحشوة ينتظرون الاشارة ليطلقوا علي في لحظة واحدة .

كان الحراس يعتزمون قتلي من خلال الصفيح وبينهم كان قاتلي سيضيع .

هل تتصور ان تنهمر آلاف الطلقات على جندي الصغير ثم يقال : وارينا الكلب في موضعه ؟

هيه ... هيه كم يستحق هذا القهقه : آه لوتقهقه معي . بالصوت المطر والبرد يقرع الصفيح ثم اللحم . موسيقى . اليس شجياً ابقـاع الموسيقى ؟

يومها تذكرت اغنيات امي عن الحب والمطر ورائحة زهر الزيزفون ، والآن اتذكر انني نجوت وانتحرت امي .

ايه .. ذلك اليوم ما ارهبه ، لوشهدته ايها المحترم !

على وجه الشيخ لم أر ايما علامة . تبدى وجهه اصماً ، حرثه الزمن بالوقار والصمت واللامبالاة . وللحظة لمحته كجبل معمم محايد يطل على الدهور من خلال حكايا الناس ، بينما أنطرح تحت قدميه كقط مذنب . تمتمت : ما اتعس البشر !!

ورغم نمو احساسي الخاطىء بالاختيار حول صلاحية هذا النوراني حكماً ، الا انني لم اتوقف عن الاعتراف .

نزعت جزمة الصيد وقد جرحت قدمي فرميتها قرب البندقية :

والذي اذكره ياسيدي المبجّل ان اليوم كان يوم هياج . الشمس في مرج الظهيرة ، والنفوس تصيح صيحات الثأر ، ورايات عبس وذبيان تخفق في الريح تطلب الدم .

هل قلت الدم ؟

كانت القمصان الارجوانية تغطي اجساد الفتية المطروحين على اديم الساحة . كانوا مغمضي العيون لايتنفسون .

وتعالى الهياج والهرج هزجاً كأعراس الجن . في الشوارع وبين الغابات ومن البيوت الآمنة . اصوات الباعة والاطفال والنساء الحوامل . طلقات تختلط بالانين والسقوط على الارض . والدم يطلب الدم ، والرايات مشرعة .

خيط الموت بالنجاة ، والصدقة صارت مهراً اعمى يجمح ويدوس .

الليل نهار ، والشمس قمر ، وانا بينهما انتظر دورة الفلك .

هل ثمة جدوى من وصف المشاعر وانا انتظر في قفص الصفيح مرور الدقائق الخرساء ؟ هل كانت الدقائق تمرّ ؟

كان الزمن معلقاً على جدار القفص ، وكان معي الفتية الاحياء الذين صادهم الفلك ، بدوا في ظل الشمس حجارة حولها الرعب الى دمى من الشمع العديم اللون .

رويداً رويداً خفق خوفي ، متمهلاً ، متسارعاً ، ثم مالبث ان سكن كالحجر في قعره الخاص .

التذكر : الولادة ، الاصدقاء ، الحب ، طفو الحياة على سطح الرعشة .

ثم النسيان : غابة حزن معتمة . طوف فارغ فوق بحر من سديم . دوار .

مرة اخرى التذكر : امي ، صبيتي التي احببت تحيا ان اعود . النسيان .

الصفيح لم يثقب . ليته هذا الشيء التافه . مازال الهياج في الخارج والدم لايرتوي وثارات القوم لم تخمد . مازلت حياً . المس جسدي . الدم يتدفق في النبض . اهاجر مع الذكرى . هل بقي فرح .

ما أتعسنا جميعاً . البراءة ، الاخلاص تبني مجداً للآخرين .

وها انت تموت وحيداً كذبابة تسحق في حيز ضيق . امي الآن بماذا تفكر ؟ هل تعرف لماذا اموت وهل توافق على موتي ؟

وينجرّ النسيان كفناً اسود كهذا اليوم ،فوق نعش فارغ :مات الكلب .

كل الكلاب تموت هكذا النفس لاتوقع قرار التصديق .

ايه . بالمجانية التي تحدث فيها الاشياء ، بل بالتفاهة .

اخيراً دار الفلك . تزحزح الزمن عن جدار القفص فرماني في الساحة وفي يدي بندقية محشوة بالطلقات ، وعلى مسافة متر واحد كان الانسان الذي قتلت .

كل الرصاصات افرغتها في جسده . كان بامكاني ان اقتل جميع البشر بلا رحمة . جميع البشر بلا استثناء . اجل جميع البشر . اتفهم ؟

ارهقني الاعتراف وانا اتلي هذا الشيخ الصامت . وراح الضباب يعمم الجبال والغابات البعيدة ، واسراب من الغربان تنعق عائدة الى اوكارها ، وبدأ الاصيل يزحف فوق السهوب متعباً .

كان مايزال ينهل الحكمة من سفر الوجود . يسأل فلا يجيب . يحط المتعبون في رحابه ، ينفضون جيوب نفوسهم وهو يستمع . وددت ان اصرخ في وجهه : العقاب ، هل من اجله يولد البشر ؟

لكنني كتمت صرختي وقلت : لاتمل فانا وحيد تعس اضنى التعب والصيد والبحث عن يقين ، لهذا اروي لك !

– ٢ –

قلت للشيخ : بعد ايام من حدوث معجزة نجاتي ، انقطعت عني الرسائل ، ثم فجأة وصلتني برقية تطلب حضوري فوراً . سافرت الى بلدتي

الصغيرة ، وهناك صعقني النبأ . اتعرف كيف ماتت تلك التي كان اسمها امي ؟ خيل الي انه يرنو الي بعين سارقة مهمة فشرحت :

خرجت الى ساحة البلدة ومعها سكين وزجاجة . ووقفت في الوسط ثم كشفت عن جمة شعرها البيضاء . وبسطت ذراعيها رافعة رأسها باتجاه السماء وصرخت : لقد رأيت كيف قتلوه ، كيف مزقوا لحمه الطري الصغير بالرصاص .

وكانت امي يا جدي ورعــة تتلو الصلوات ، وتبجل جميع القديسين والنورانيين ، واذكر انها كانت ترنم لي مع اغنيات المساء هذه الجملة :

اذا وقعت يا بني فادع الله يحضر . اندبه في الضيق ينقذك من المكاره . انه غفور رحيم وسعت رحمته السموات والارض .

لكن الفاجعة افقدتها الصواب . لقد جدفت يومها : ايها الغفور اين انت ؟ لماذا لم تتقدم . اي ذنب ارتكب حتى يموت ، اي ذنب ؟

وانهالت تمزق ثوبها وتطعن جسدها حتى تعرت من آخر قطعة ثم بترت ثدياً وقذفته نحو الاعلى : خذ حليبك . خذ اطفالك .

وقطعت الثدي الآخر ورمته في خندق قريب فتناوله كلب مقعٍ حمله بين فكيه وعدا به نحو المقبرة . وراحت تبصق لعاباً مغموساً بالدم .

تحاملت فأمسكت زجاجة البنزين ودلقتها فوق جسدها . ثم اوقدت اللحم العاري .

كانت امي قد تحولت شيئاً آخر بعد الحريق . كومة سوداء ذات رائحة كريهة امام اعين البشر عندما اندفعت امرأة خاطئة شاقة جموع الشهود وارتمت فوق الجسد الحلامي الذي خمد عذابه .

وفشلت المرأة الخاطئة لأنها وصلت بعد فوات الوقت . لملمت بقايا من كانت امي وهي تبكي عليها ثم دفنت تلك الرمة من الفحم . لم يمش وراء الجنازة غير الكلب والقطة التي ربتها الام ، وأفتى الحواريون التقاة : حرّم عليها الدفن والصلاة لأنها خالفت الرب وقتلت نفساً حرم الله الا بالحق ، وذكرها ملعون في العالمين .

هذا ما قصته علي المرأة التي ارسلت الي برقية الحضور ، واخبرتني بأن الناعي جاء يقول لأمي : رأيته بعيني يموت في مجزرة الضحى . ثم روى لها بانه هرب من الاسلاك الشائكة خلال المذبحة بعد ان رآهم يطأون بجسدي واجساد رفاق الفتية . واثر هربه لم يكن يسمع الا دوي الرصاص . وقالت بان امك هرعت نحوي منفوشة الشعر مشقوقة الصدر وكأنما أصيبت بمس وراحت تصرخ : مريم . مريم . لقد قتلوه . الوحوش لاترتوي من الدم . صارت الصحارى كأنها نحاس والفجر كالشفق من الثارات . ويلاه ابني لماذا يموت ؟

وراحت تمزق ثيابها ، وتنتف شعرها ، وكذئبة انبرت تعوي .

كنت استمع يا سيدي الى مريم وهي تنشج ، وانا راكد كمستنقع .

سمعتها تتمتم من خلال دموعها : امضيت الليل بجانبها اواسيها . كان ليلا مرعباً مليئاً بالانين والهذيان والاصوات . وحتى طلع الفجر ظلت تهلوس كلمات مبهمة .

وقلت لمريم : صادها الموت ونجوت انا . كفى . كفى .

واقفر بيتنا ياسيدي . جللته الفاجعة فغدا اعشاشاً لبومات الليل وموطناً

للريح والنسيان ، واذاع الشهود انارواحاً شريرة تقطنه وان شبح عجوز شمطاء محروقة الوجه مقطوعة الثديين ، يجوسه في الاماسي ، وان ذلك الشبح لايني يعوي بصوت حيواني لايفهمه احد . ابتعد الاطفال عن البيت ورتع العنكبوت في النوافذ والكوى وسطا الجيران على الدجاجات وصادوا سرب الحمام الابيض الذي ربته امي ، ومع الزمن تهدم ويبست شجرة التوت ، وفي البراري هامت القطة التي صارت وحيــــدة فتوحشت وراحت تلتقط الحشرات والعصافير والصيصان الميتة .

- ٣ -

هكذا منذ البدء ندور كالافلاك في مدارات التعب . بشر اكثر من النجوم نخضع لقانون جاذبية الاعظم ، وتنشدّ رقابنــــا نحو الملأ الاعلى . تتوعر صبواتنا باتجاه الشيء العصي على الفهم ، وأحد ما لاندرك ما قاله السيد الحلاّج : « ما في جبتي الا الله . »

وبقي الصدق الاعظم والكذب الاعظم متجاورين ، ووحدي مازلت اعترف .

لكن الكهل صديق الرياح والخائفين ما يزال يتشي بجام الصمت .

يهضم حكمته ولا يفرزها . والتائهون يتكاثرون كجراد اصياف الجوع . متعبون من الشمس والحصاد وعتل الصخور وحمل البنادق ، يحصدون انفسهم والآخرين ، ويدخلون المخادع المحرمة . يشهدون الزور ثم يرتلون الآيات . يتواكب نسل التقديس والتمجيد للباري ، والدود عن نخر الحلبة لا يتوقف .

وها انذا عن الجميع اعترف .

حزت رقبتي حقيبة الصيد . سلت رأسي من علاقتها ورميتها قرب الجزمة والبندقية وحزام الخرطوش وفيها زوادة رحلتي .

مرة ثانيـــة استيقظ عطشي ، قلت للكهل : اتسمح لي ان اشرب من بقطيتك للمرة الأخيرة ؟

تخيلت انه اومأ موافقاً فنهضت وشربت . وسوست النفس :

الا يكفي الماء المتعين . لماذا الحكمة ؟

وتابعت حكاياي : شقية حيـــاة الصيادين كما ترى يا كهلي المحترم . فهي مليئة بالمفارقات العجيبة ، واكثرهم لا يجرؤ على الاعتراف ، يبنون اقبية من الكلس الهش داخل نفوسهم ويدفنون فيها الاسرار ، وفي تلك السراديب المظلمة تكمن حقائق الانسان الذي لا يحتاج التبرير ولا الحكمة . هناك ترى الدهشة والحب . القتل ومدائن الرغبات التي لا حدود لها . وهناك يرتفع الشيء الاعظم والصدق الاعظم . وفي تلك المدائن مريم ليست خاطئة !

خلف تلك التلال ذات الخضرة الابدية — التي تراها — تنام بلدتنا الصغيرة . فيها ولدت مريم ونمت كشجرة غضة . لرشاقتها سموها الوعلة ، ولحسنها الانثوي العذب هام بها الرجال المتزوجون وعبدها حتى فتية المدارس . رأوها وهي تغنج على طريق العين فاعترضوها ، وشاهدوها ترقص في مراسم الاعراس والاعياد ، حارة موردة فتشهوها بشبق اودى بهم الى نزاعات لا تنقطع .

كانت آلاف العيون تتفرس في بهاء وجهها العقيقي ابداً ، وفي الاحلام نالوها دونما اذن او رغبة منها .

ومع الزمن احس الاب ان ابنته مهددة بالقطع . فالفؤوس تدور حول

بيته ، وغضب الرجال الجنسي متوتر : وفي وجه هذا الغضب المتوحش لن يقف حائل . فقرر امراً .

كان النقص قد تلوى في خلاياه هو الآخر ، وفار الغضب داهمه الدود الناخر والشهوة صارت رمحاً ، ثم انقلب الرمح افعى ولو لبت الافعى لسانها .

حجرت مريم عن الخروج فافتقدها الجميع ، وسرت همسات . انتثرت اشاعة وتنبؤات ، وقالت حيزبون مقربة من الاهل :

مريم منذورة . هبط الملاك على الوالد وهدده ان زوجها ليحرقن زرعه ويجففن ضرعه ، ويقطفن ذريته عن سطح الارض ! قلة من الناس صدقت النبوءة ، وشوت اللهفة آخرين فظلوا يرحلون في احلامهم الى مخدع مريم السري .

ومرت ايام وشهور ، ومريم ما تزال رهينة . اصاب البلدة محل اذ غاب عنها المطر ، وقاظت نهاراتها ولياليها فنضبت الينابيع وذوت الخضرة الدائمة . وشهراً وراء شهر هاجر كثير من الرجال الى ما وراء البحار وكان جوع شديد كافر .

وذات مساء سرى في البلدة نبأ غريب : مريم حبلى !!!

هجمت الريبة الى ضمائر الناس فهزهم النبأ ، وناسهم الصدق والكذب بين مداريه ، وقالت الحيزبون في بيوت السمار . نفذ الوعد . وعد الملاك حق . الم اقل لكم انها مخطوبة للملائكة منذ الطفولة ؟

ورفض كثيرون البدعة : محال . حبلى من الريح ؟

تذمر رجل ثم تجرأ : الملائكة لا تحبل . في الامر سر !

وردد معه آخرون : ينبغي ان نكشف السر .

وفي امسية اجتمعت البلدة وقرر عقلاؤها معرفة الامر .

ارسلوا وفداً عنهم الى بيت مريم ، لكن الوفد عاد مطروداً وقالوا إن

الاب شتمنا وصاح في وجوهنا : ابنتي طاهرة ولن تنشروا في بيتي فضيحة . ثم وسم اهل البلدة بانهم كلاب وخنازير تريد الولوغ في شرفه .

بين الغضب والهياج وفوران الدم نوقش الامر ، واخيراً قررت الجموع اقتحام بيت مريم .

وفي ليل عابق بالنجوم والاسى ، تحركت جماهير غسلها الهياج . حملت فؤوسها وعصيها ومشاعلها وتوجهت نحو البيت المعزول في طرف البلدة .

— من اللصوص ؟ صاح الاب

— لسنا لصوصاً . نريد المرأة الخاطئة ! قالت الجماهير .

— انتم انجاس وشريرون .

— أرنا زوجة الملائكة والريح !

— اعطنا مريم يا يوسف الكذاب .

وعلى الباب وقف رجل ضخم صلب القسمات ملفوح الوجه ، عيناه تلمعان كالنمر وفي يده بندقية صيد . أطل على الشهود وزأر :

— ماذا يريد قضاة العالم النهم ؟

وخفق الصمت . اغل الكتلة الآدمية ، وتمددت السكينة فوقهم فانكسر الهياج :

لعلع صوت الرجل : بغيتكم يا ذئاب الغاب ؟

احتضر صوت ناء : سؤال مريم عن بعلها !

غص صوت من داخل البيت : اسألوه هو !

هتف الاب ممزقاً خداع السكون : غرستي زرعتها صغيرة ربيتها حتى

نمت واثمرت . من أحق بثمار الشجرة من غارسها ؟ وعقلت الدهشة ضمائر الحاضرين وقال الذهول : انا غابة الاسرار .

حكاية سندباد طاف جزائر العالم واستلقى بين قشرة الحياة ونواة الرغبة . وتابع الاب : من منكم لم يكن راغباً بها يا ابناء عامورة . الي تضرعتم ان اكون قديساً يقدم الموائد الشهية، ولم تطلبوا من آلهتكم ارواء العطش والجوع الساكنين في خلاياكم . في ظلام الارض تهتم بحثاً عن الرضى والقناعة ولم تخاطبوا انبياءكم يوماً عن حاجاتكم ، وعن النقص في الضلوع وتشنجات الليل المخنوقة واستمرار الآثام فوق الارض . وبدأ صوته يعود الى طبيعته : تذكروا تشهيكم السرمدي لزوجات وبنات جيرانكم واصدقائكم والموت الصاعق في منتصف الزمن وقبل الاوان . هل تساءل احدكم يوماً لماذا الحلية البشرية معطوبة يقضمها الدود الجائع منذ الدهور الاولى ؟

عاد الصمت وشاحاً يكفن الناس والليل . وتمتم صوت احد الحكماء : جاد الاب ابنته .

تبعه صوت الى جواره علا اكثر : الزاني . اقتلوه . .

فعاد الاب الى هدوئه المتوحش : عودوا الى جحوركم يا حشرات الارض المنسية ، وفتشوا عن الآلهة فيما وراء النسيان الجاثم على ارواحكم . بوروا افعالكم اولاً ثم شكلوا المحاكم . صيروا قضاة حماقاتكم السرية قبل ان تطاردوا الآخرين بهياجكم البربري . كل نفس تحمل وزرها وحيدة في عالمها . بالمعصية والرغبة اقسم : من يتقدم منكم مشكول .

قال صوت : احرقوا الفاسق . ـــ يرجمنا الرب بالحجارة والصواعق ان تركناه .

وقال آخر : هذا الرجل يسفه آلهتنا .

ونده آخر : اثأروا لرغباتكم . انتقموا للعدل الرباني . عـــاش الرب وليسقط الزناة !

وسافر الصمت متعثراً في دروبه الخفية . ثم تمور الهياج والغضب وكبل الرجل الوحيد . احس بانه سينهش وان سورة الذئاب ستفترسه ، فقـال بصوت عادي : قد اكون الآن في المصيدة . لكن كان ما يجب ان يكون ، وفي العالم ايها السادة ما هو اعظم وافظع ، والخطيئة بعمر الكون مذ وجد الانسان . جميعنا صيادون منذ قابيل . حمقى ومبعثرون فوق سطح الارض ،وقليلاً ما نميز الخير من الشر . تلك ارادة الخالق .

تهر الرجال فـانقذف مشعل في حديقة البيت تبعه صوت :

حكمنا عليك بالموت ايها الزاني !

صرخ الأب مذعوراً : وانا حكمت على اثنين منـــكم بأحمق الزمان !
وارتمى مشعل آخر خلف بوابة البيت اعقبه هرج وصيحات مزعت هدوء الليـل وتحركت الكتلة . خطت في عين الأب فصارت قدره الاخير.

في اطرافه تمشى الموت هادئاً عندما انقذف مشعل وارتمى بين قدميه وندت صيحة : الموت مظهرك . مت لتحيا ! ومن داخل البيت صرخت مريم : انا فديته !

الى يساره سقط مشعل آخر ثم الى يمينه فلم يتزحزح .

اضيئت عيناه بشعاع غريب . قتل ووجل ورثاء ، هي كل ذعر الارض وخيانتها استلقت في المسافة مابين عينيه والحشد .

وقال العقاب : انا حصاد الاعمار في مآتم البشر المتواصلة . ثم سقطت مشاعل خلفه وطوقته النار .

وانبهق التذكر : مريم غرسة الشهوة ولدت مني ثم عـــادت الي . استرددت شهوتي . هذا ماحدث للوط في زمن مابعد الطوفان . جدي اضطجعت معه ابنتاه، وانا اضطجعت مع ابنتي، وهاانا اعاقب بإرثي القديم . آه لقدسال الدم في عروق الاجيال حتى وصلني . ياللمهزلة المؤسية ! وحضر النسيان : غيمة السديم والغياب خلف قشرة الزمن الحي .

ثم التذاكر : مريم مرة أخرى . خيبة هذه الجماهير. النشوة التي انقضت. جرني الذي عمدته وتعمدت فيه . رضاي وكهف عمري في الليالي الباردة .

النسيان ايضاً . والحشد مازال يدوي كأزيز النحل في يوم ساخن . مشاعل واصوات بلهاء تقرع ليل الاطمئنان والبندقية في يدي ستقتل اثنـــين . اثنان لاعلى التحديد سيموتان بحماقة ومجانية . خسران البشر المستمر . صيدادائم ولاشيء آخر .

ولطمه مشعل في وجهه . فاحمرت عيناه وسالت دمعة : وداعاً يامريمي .. ياحياة كانت هنيئة . وضغط الزناد الاول . ندت آهة واختلج جسد ثم تهاوى . انذعرت الغوغاء وراحت الفوانيس والمشاعل تتحطم ،وتعالى الهرج والضجيج. آهة شيء ثقيل يسقط : قتلت . ياموتاً يكفن حياة مثقلة . وهجمت الزحوف . وهرعت مريم .

ـ احرقوني معه .

وعلى الأب والزوج ارتمت لتحميه . تشبثت بثيابه وغطته بجسدها .

ـ اقتلوني انا ايضاً .

- ابعدوا الزانية .

- كان حياتي ولباسي ايها القتلة .

وامسكوا بها . نزعوها عنه .

- اهربي يامريم . صاح الرجل الذي يحترق .

وجزّوها .

انفرد بها نفر منهم في حديقة البيت تحت ستار أيكة مظلمة ، بينما انهى الآخرون صيدهم .

كان الكهل قد غفا . اتعبته الحكاية ففاض في جب ّ نورانيته . نهضت واقفاً والنفس ترنم : ايها اللاشيء العظيم تواراً في صمتك الدهري فأنا راحل .

رميت طرائدي قرب بندقيتي وعدة صيدي ورحت اغذ السير وحيداً فوق الارض ، وفي مواجهتي الظلمة والنور معاً ورياح اليقين المزعزعة .

ديكنا

عبد الله عبد

بعد ان جمعت اولاد حارتنا ، واكتمل عدد الذين سيرحلون الى قرية الضرف ، قلت :

- هيا نمضي اليهم

فقالوا :

- هيا نمضي اليهم !

قال ابراهيم وهو ولد شكوك مفلطح الأنف أشعث الشعر :

- لعلنا نسينا الديك ؟!

قلت :

- وكيف ننسى الديك وهو هدف رحلتنا ؟!

قال :

- لعلنا نسينا شيئاً آخر غير الديك .

واتجه الى نديم

ـ اريني نقافتك

واخرج نديم نقافته من جيبه وعرضها قائلا :

ـ هاهي !

ـ والحصن ؟

ـ والحصن أيضاً

ثم بعث في طلب سليمان من مقدمة الجماعة وسأله :

ـ أين مقلاعك ؟

فضرب سليمان جبينه مستدركا

ـ آه لقد نسيته في البيت

فانسحبت زاويتا شفتي ابراهيم الى الوراء قليلا . وقال دون ان يبالغ كثيراً في انتصاره :

ـ هيا واجلبه من البيت .

وما كاد سليمان يجري باتجاه البيت حتى هتف وراءه :

ـ لاتنس الخرطوش .

فحمل الجميع صوت ابراهيم الضعيف الذي لايتناسب مطلقاً مع ضخامة حجمه ومركزه كقائد لعمليات القتال بيننا وبين الجماعات الأخرى .

ـ يقول لك : لاتنس الخرطوش

وكان المقصود بالخرطوش طبعاً هو حجارة المقلاع . وكان الأجدر لو اسميناها في ذلك الحين قنابل . فالحقيقة ان المقلاع عند الصغار في عالمهم يقوم بدور المدفع عند الكبار .

المهم بعد ان تفقد ابراهيم عدة القتال من مقاليع ونقافات وعصي أعطيت من ناحيتي اشارة التحرك. كانت الكلمة العليا ترجع لي اخيراً. كنت يومها ابن المختار.

وهكذا اتجهنا نحو قرية الضرف التي تبعد عن قريتنا مسافة يجتازها المرء في عشرين دقيقة سيراً على الاقدام وفي عشر دقائق على مركوب. وطبعاً لم يعتل أي منا في سفرته هذه ظهر مركوب. مع انه كان في استطاعة بعضنا ان يفعل ذلك على دابة من دواب العائلة الخاصة. لكن كنا نخشى اسوأ العواقب.

كان أولاد الضرف قد هزمونا منذ خمسة أيام خلت في مباراة لكرة القدم هزيمة شنيعة، ولم يكن ذلك يرجع الى ضعف في لاعبينا، وانما كان بسبب ادارة الحكم. وحينما رفض اولاد الضرف اقامة لعبة الثأر فكرنا في وسيلة اخرى للانتقام منهم. وجرت مفاوضات لاجراء قتال بين ديك من عندنا وديك من عندهم. كانت الهزيمة قد تركت مرارة في حلوقنا حقاً. وكنا واثقين من انتصار ديكنا.

كان ديكا فتيا ضخم الجسم، عالي القائمتين، طويل العنق، مزين الريش، ومتوج الرأس بعرف قان جميل.

وكان خلافا لما هو معروف عن طباع الديكة ينقر كل دجاجة تقترب من الطعام في الوقت الذي يتناول فيه وجبته. بل اكثر من ذلك كان يتعين على الدجاجات ان تقدم له كل حبة صحيحة طيبة اذا هو غفل عن التقاطها. حتى انه لم يعد يكلف نفسه عناء النبش عن طعامه. وهكذا اخذ يمتلىء شحما ولحما طبقة فوق طبقة. ولم تحمل الدجاجات له ابة ضغينة. فهي قد اعتادت سلوكه وكيفت نفسها على اساسه. ان الدجاج احيانا كالبشر. أليس هو ديكها وحاميها، اذن

فلتتراجع الى الوراء حتى يتم طعامه . ولتنم في مرتبة ادنى من مرتبته .. لكن منامه في القن في اعلى مكان .

كانت الدجاجات تنظر الى ديكها فخورة مزهوة عندمـــا يخطر امامها جميلا انيقا بريشه الملون المذهب والمفضض ، ولا سيما عندمـا يستيقظ في الاصباح يوقظ النيام بصياح حاد طويل قوي ممطوط ، فيه رجع قصير مبحوح يعقبه نغمة تنضح دلا ، وتنطق بفخار وتفضل واضح . كان صياحه فعلا من أجمل صياح كل الديكة التي عرفتها قريتنا خلال السنين الطويلة كما يقول الكبار في القرية . وكان اروع ديك بعد تلك السنين العجاف التي مرت على المنطقة وقصمت ظهور الديكة . ريش ملون جميل ، وصحة موفورة وصياح يملأ الاسماع . فمهلا اولاد الضرف . ها نحن قادمون اليكم . فاحشدوا كل ما في قريتكم من ديكة مقاتلة .

حينما وصلنا الى مشارف الضرف ، بعثنا رسولا يطلب الى ابناء القرية ان يخرجوا الينا بديكهم ، كان ابراهيم قد اختار مرجا اخضر ليكون ميدانا لصراع الديكة . وعندما قال له أحد الرفاق : يجب ان نسحقهم في قلب قريتهم ونجعلهم سخرية الساخرين .

رد عليه ابراهيم بوقار قائد مسؤول عن جماعة ، يعرف ماذا ينبغي عليه ان يفعل في مثل هذه الظروف :

ـ من الناحية الشكلية فان المرج يحقق لنا هذا الغرض على اتم وجه . اذ انه قادر على استيعاب جميع ابناء القرية . في حين انه لا يوجد داخل القرية ساحة تستطيع ان تحتوي مثل هذا الجمع من الناس . وفوق ذلك فالمرج ملتقى عدة طرق للقرى المجاورة .

ثم أضاف بعد فترة صمت :

- لعلكم فهمتم قصدي .

نظر اولادنا عندئـــذ بعضهم الى بعض ، وانبسطت الاسارير وعلت الابتسامات الوجوه . فقد دل ابراهيم على حكمته مرة اخرى كقائد ليس له نظير . ولم تقف عبقرية ابراهيم عند هذا الحد . فقد تابع :

- انظروا الى هذه الصخور .

ونظرنا باتجاه الصخور دون ان نفهم مغزى قوله في البدء . لكنه تابع :

- هذه الصخور تقع في طريق العودة الى قريتنا . ولما كان نصرنا محققاً مئة في المئة ، فان هذه الصخور تهيء لنا مكامن جيدة للقتال اذا ما راودت اولاد الضرف فكرة التحرش بنا من اجل الانتقام لهزيمة ديكهم . نعم انهم سيكونون تحت رحمة نقافاتنا ومقاليعنا .

ورقص البعض للخطة ، بينما وثب البعض الآخر في الهواء تحمساً . وعلى العموم نالت الفكرة استحساناً ساحقاً ، بالرغم من تخوف اصحاب العصي بأن هذه الطريقة لا تحقق لهم التحاماً كاملاً مع العدو مما يعطل فعالية اسلحتهم .

على كل حال لم يطل انتظارنا ، اذ سرعان ما جاء اولاد الضرف يحملون ديكهم في قفص مغطى ويلحق بهم جمهور من المؤيدين . ووقف بعض العابرين الذين كانوا في طريقهم الى القرى المجاورة ، فتشكل من ذلك كله حلقة كبيرة حول المرج .

وبدأت المراهنات بين المتفرجين ، مـا لبث ان تصعدت وحمي وطيسها عندما اطلق سراح الديكين . وكانت معظم هـذه المراهنات في صف ديكنا . كان لدينا سمعة طيبة حقا في المنطقة .

واخذ الديكان يدوران في الحلقـة ويتجهان الى الجمهور احيانا بالصياح .

كان لكل منهما طبقتهالصوتية . كما كانت له طريقته الخاصة في الاستعراض . والواقع كان صياح ديكنا اشبه - لوجاز القول - بنصل حاد ينغرز في شيء ما . واذا اجزنا القول مرة اخرى، لقلنا انه ينغرز في القلوب .

واذ ما اضفنا هذا الصياح القاطع الحاد الى بنيته المشدودة وجرمه الضخم وشكله الجميل لكانت النهاية المحتومة واضحة منذ البدء بلا ادنى التباس .

نعم فقد بدا لكل ذي عينين البون الشاسع في اللياقة البدنية بين كلا الديكين . كان ديكنا يرفل في ثوب قشيب من الالوان الرائعة . ويتفجر حيوية وقوة .

اما ديك أولاد الضرف فكان اسود نحيلا ظاهر جلد العنق عاريه . وكان عرفه صغيرا ذا حمرة قاتمة وله منقار اصفر . وعينان ناعستان غافيتان . كان بالاجمال ديكا عاديا جداً ان لم يكن تافها بالقياس الى ديكنا .

ودار ديكنا دورتين ، ونبش ريشه ، وانتصب عرفه واشرأب وتوهج حمرة وغضبا وتقهقر الديك الآخر امام ديكنا وانكمش . ثم انفلت من ديكنا واخذ يلف حوله .

كان من الجلي ان كلا منهما يروز الآخر ويبحث عن نقاط الضعف في خصمه التي ستكون موضع الهجوم . ويحاول ان يلقي الرعب في قلب عدوه .

قال احد الخصوم :

- هذا ديك استعراضات .

فقال واحد من الانصار :

- الاستعراض ضروري لالقاء الرهبة في قلب ديككم الرعديد .

- ولكن الرهبة لا تجد طريقها الى قلوب الديكة الحقيقيين .

فرد عليه واحد من اولادنا :

- وهل تحسبون ديككم ديكا بين الديكة ؟

وقال احد الخصوم :

- العبرة بالفعل !

فأجيب من جماعتنا :

- العبرة بالنتيجة . والنتيجة واضحة كعين الشمس .

ودعم آخر هذا القول :

- هل تحسبونهـــا مباراة كرة القدم يا اولاد قرية الضرف . نعم لقد استغللتم بالأمس فساد ادارة الحكم

وتابع ثان :

- الآن سوف تدفعون ثمن التـــاس الأمس وتبصقون انتصاركم المزيف دما وريشا .

وتساءل احد الانصار :

- ولكن هل لديكتهم ريش ؟

- اذن سوف نفقأ عيون ديكتهم

- ولكن عيون ديكتهم غافية نائمة حتى لتبدو بلا عيون

- مرحى اذن سوف نمرغ اعراف ديكتهم بالرغام

- ولكن ديكتهم بلا اعراف !

- حسنا لماذا يسمون ديكتهم ديكة ؟ ..

وقهقه افراد جماعتنا ساخرين . ودبت الحمـــاسة الى الجمهور الذي اخذ يتماوج مع مناورات الديكين وحركات المد والجزر التي يقومان بها .

وتقدم ديكنا الى الامام وقد انتفش ريش عنقه المتطاول حتى اصبح اشبه بلبدة اسد صغير ، وتألقت عيناه واحمرتا . وصفق بجناحيه تصفيقتين فبان ما يطويه هذان الجناحان الرشيقان من ريش جميـــل . وصاح صيحات الحرب المنذرة . كان جميلا انيقا في القن . وكان اجمل بما لا يقاس في ساحات القتال .

وارتفع صوت :

ـ قلت لكم انه ديك استعراضات

وسانده احد الخصوم ايضاً :

ـ وحق الله هذا الديك لا ينفع . انه ديك بين دجاجاته فحسب

والواقع ان ديكنا بعد ان حاصر خصمه الذي ظل يتراجع امامه ، حتى لقد راودنا الاعتقاد بأنه سيقضي عليه لا محـــالة ، انقض الديك الاسود عليه وراح يعمل منقاره في رأسه حتى أخذ بعض الريش يتساقط

وهتف نصير :

ـ هذه حلاوة الروح . ان الديك الاسود حفر قبره بنفسه . لقد ارادها جدية . فليقطف اذن ثمرة رعونته . لقد كان الديك الضخم يداعبه فحسب . ولو شاء لبطش به .

ـ ولماذا لا يبطش به بحق الله ؟

ـ انتظر وسيفقأ عينيه .

ومد ديكنا عنقه الى الامام وصاح غضباً . نعم لقد جرح فسال دمه . فالويل للديك الاسود وليدفع الثمن اذن غالياً . ان ريش الديكة الاصيلة لا يسقط على الارض هدرا . ودمها لا يراق جزافاً .

غير ان الديك الاسود سرعان ما عاجل خصمه بعدة نقرات في التويج

تماماً . واخذ الدم يسيل . يالله ان التهديد لم يعد يجدي معه . فهيا ايهـــا الديك الجميل . هيا واقضي عليه . ان اللين لا ينفع مع امثال هؤلاء الديكة الجربة .

ولكن وا أسفاه لقد استمر الديك الاسود في الهجوم واستمر ديكنا في التقهقر . وظل الريش الملون يتساقط والدم ينزف . وتعرضت مواضع جـديدة من ديكنا لنقر مركز . فبعد أن شوه العرف الرشيق انتقـــل الى العينين ثم الى العنق .

وقال قائل :

ـ ان ديكة الاستعراضات غير ديكة القتال

وقال ثان :

ـ ان الديك المقاتل ينقض كالباشق ، ويدور كالمغزل حول خصمه .

وقال ثالث :

ـ ان السمنة افسدت ديككم . نعم أن الترهل خـــاصة سيئة في الديكة المقاتلة .

واضاف الكبار في قرية الضرف :

ـ فليكن كلامكم على قدكم ايها الاولاد . ولا تتحدوا ديكة الآخرين بديكة افسدها العلف الكثير .

وقال آخر :

يا للخسارة انه ديك جميل وصيّاح لا يشق له غبار ولكنه غير مقـاتل . يالطيف لو اجتمعت فيه ميزات الديك الاسود او العكس .

وعقب احدهم :

ـ يا شيخ لا تعترض على حكمته عز وجل . الكمال لله وحده .

والحقيقة ان منظر ديكنا الجميل تشوه تماماً ، وان الصياح العالي الذي كان يطلقه في اول القتال اخـــذ يخفت شيئاً فشيئاً حتى تحول الى قوقأة . لكن الغريب بعد ذلك انه عندما اعيد الى القن بكل هيأته المزرية راح يتبختر أمام الدجاجات . والاغرب من ذلك ايضاً ان هـــذه الدجاجات طأطأت رؤوسها وتراجعت كعادتها الى الوراء عندما بدأ يتناول وجباته .

الدار الغريبة

اسماعيل عدره

كان الطريق طويلاً جداً ، لكنه سهل العبور ، قد انتثرت على جانبيه القرى والمزارع ومراكز البوليس ، تؤانس المسافر الغريب وتذكره أحياناً بذويه وبلاده ، فتوقظ في نفسه شوقاً راقداً وحنيناً غافياً مايلبث ان يزف مع سحابة عابرة او ترنيمة طائر ، او حديث مسافر .

كنت واحداً من عشرات المسافرين .

كان سائق السيارة التركي ماهراً ، لكأنه هو الآخر قد استخفه الحنين الى شيء ما فراح ينهب الطريق ، ويطوي المسافات دون ملل ؛ لكن الزمن كان يسير سريعاً يتحدى رغبات الإنسان ويصرعها حين يعتقد الانسان انه المنتصر ، او يقرب بعيداً ما كان بالقريب لولا الزمن !

—الطريق طويل .. طويل .. أليس كذلك ؟

هكذا سألني السائق التركي بلغة عربية سقيمة ، وكنت أقعد الى جانبه في مقعد مفرد ..

لقد سررت ان وجدت إنساناً في سيارتنا استطيع ان اسمر معه عبر طريق طويل حقاً ..

كان انساناً غريباً في حديثه وأحكامه وحتى في قيادة السيارة .. فحين وقفنا مدة ثلاثين دقيقة في بلدة « أسكيشهر » نتناول معاً بعض شطائر الطعام ، سألني برطانته السقيمة :

— من أي بلد الأستاذ ؟

— عربي .. من سورية .. جارة بلادكم ..

قلت ذلك وأنا لا أتوقع أي تعليق منه ؛ لكنه صمت قليلاً وحملق بي بعينيه الكستناويتين ووجهه الأسمر ، وردد :

— عربي من سورية ، جارة بلادنا ؟!

قلت :

— وما في ذلك ؟!

ظل بعدئذ صامتاً ، وقد ارتسمت في عينيه ، وعلى وجهه الأسمر ، مظاهر الحيرة والاستفسار عن شيء مجهول ، وأحسست أنني أسأت الى الرجل ، او أنني أثرت في نفسه ذكرى مؤلمة ، فتمتمت : — ابن الترك لا يحب العربي !

وعاد يسألني برطانته التي بدت اكثر سقماً وعماً :

— من أي بلد في سورية ؟

— من سلمية .

ولم يعقّب على شيء ، وإنما بصر في ساعة يده وقال :

- لقد حان ان نستأنف سيرنا ... أليس كذلك ؟

ومضت السيارة ثانية تغذ السير صوب قونية .

كان النهار قد تقضى ، والشمس الغاربة تلثم الجبال والأودية والسهول بظلها الشاحب الأصفر ، وتغمرها بدموعها الباردة .. أما المسافرون فقد بدوا في حالات متباينة وصور غريبة : مسافر إسترخى في مقعده ، وقد أتعبه السفر من مكان بعيد ، فإنحنى رأسه وارتخت ساقاه ، وراح يتحرك مع السيارة كلما عبرت منعطفاً او اجتازت منخفضا .. وآخر استسلم لنوم قلق مشوّش ، مايكاد يغمض عينيه حتى يفتحهما اثر حركة ما .. وثالث يحدث جاراً له حديثاً مسهباً لم أعِ منه شيئاً .. كانوا خليطاً من الجنسيات والمدن ، جمعتهم الغربة وامتداد المسافة فغدوا رفاق درب وإخوة سفر ..

شيء واحد كان يقلقني .. هذا السائق الغريب المزاج الذي مابقتاً يرمقني بين الحين والحين .. لقد فسّرت هذه الظاهرة الغريبة تفسيرات متغايرة ، لم أستطع ان أقف منها على تفسير معقول مقبول . وتمنيت لو أفصح عما في نفسه ، اذن لأراحني من قلقي ، ولمضت رحلتنا ممتعة مطمئنة .. وددت ان يحادثني .. ان يسألني ، او أسأله عن حاله ، لعلي أعرف مافي خاطره ونفسه .. وحين هممت ان أبادره في سؤال مجهول ، تلمحت اللوحة المعلقة قبالته ، وقد كتب عليها بلغة تركية ممزوجة بالعربية « ممنوع التكلم مع السائق » !

عدت لنفسي ، لهواجسي واستنتاجاتي الحائرة ، حتى اذا لحظني مرة اخرى إبتسمت له كأنني انتزع منه الكلام وأشجعه على الحديث ، فتكلم بين حيرتي وهواجسي :

— قلت ياأستاذ ، إنك عربي من سورية ؟

— بلى ،

ولم أضجر من تكرار السؤال والحاحه عليه .. ليتحدث ، ليمنع عني نظراته المضطربة وليسأل مايشاء ؛ واذ عاد الى صمته استأنفت أنا الحديث :

— والأخ من أي بلد في تركيا ؟

— أنا من ....

ولم يتم ، وانما ثبّت عينيه على المرآة يتفحص وجود المسافرين ، ويراقب حركاتهم كمن يتقيهم في أمر يستسره فهو على حذر مما يقول وممن يسمع او قد يسمع ، ثم إلتفت إليّ وهو يستدنيني منه ، متماً إجابته :

— أنا غريب .. غريب مثلك !!

قال ذلك بهمس واقتضاب وجمجمة حتى كادت عبارته تلتبس عليّ ..

كيف يكون غريباً ؟ ولماذا تبدو عليه أمارات التوجس والقلق ؟ ممن يتوجس ؟ مني ؟ لم أفعل مايفزعه . من غيري ؟ لماذا ؟ . ربما كان طريد عدالة في بلاده فأوى الى تركيا ، او أنه أدرك مافي نفسي من اضطراب وتخوّف فأراد ان يسدده فيتخذ صفة الغريب ، فيركن الغريب للغريب ، فيتشاجيان ويترافقان ؟ ربما ...

مرة أخرى سألني :

— وأين كان الأستاذ ؟

— في رومانيا .. أدرس العلوم الميكانيكية ..

وابتسم ابتسامة خافتة ، لكنها عميقة .. وقال :

— وهل أنهيت دراستك ؟

— لا ..

ــ إذن لماذا تعود الى أهلك قبل ان تنهي دراستك ؟

واضطربت ثانية .. ماشانه بغيره من الناس ؟ ومــــاذا يهمّه ان أنجز دراستي او أقطعها ؟ لابد أن في عقله لوثة او في نفسه مللاً يود إزالته بأسئلة تافهة لاترتبط به بروابط .. مع ذلك سرّني بحديثه وأسئلته برغم تفاهتها ، فأجبته :

ــ ازور أهلي وبلدي في عطلة صغيرة أعود بعدها الى رومانيا لأستأنف دراستي ..

ويبدو أنه سُرّ بإجابتي لأن إبتسامته هذه المرّة كانت لطيفة عريضة ، وان كان مايبرح يختلس النظر الى المسافرين من خلال المرآة .

ووقفت السيارة عند مركز شرطــة ، فصعد شرطي يتفحص جوازات السفر . بدأ الشرطي مهمته بمراقبه جواز سفري، واخذ يقلّب صفحاته بدمدمة تشفّ عن تساؤل ، واخيراً ابقى الجواز معــــه ، وبسرعة تفحص الجوازات الاخرى ، وعاد اليّ يسألني ، والسائق يترجم :

ــ لماذا لم تحدد مدة إقامتك في تركيا ؟

ــ أنا لا اريد الاقامة في تركيا ، وانما المرور ..

ــ حسناً .. لكن لماذا لم تصرّح بذلك في جواز سفرك ؟

ــ ما اعتدنا الاشارة الى ذلك حين يمر المسافر في دولة اجنبية ، ولم يطلب مني هذا التصريح حين دخلت استانبول من اليونان ..

وعربد الشرطي :

ــ لا بد من الاشارة الى ذلك .. هيا .. انزل من السيارة وتريث ريثما يفصل الضابط المسؤول في الأمر ..

انه إمر مقلق مزعج حقاً .. النزول من السيارة والانتظار زمناً مجهولاً ، ربما اقتضى يوماً كاملا ؛ وقد يحوّلون الأمر أكثر ، فيعيدونني الى رومانيا !!

ــ كيف العمل ؟

سألت الشرطي بشيء من ضراعة ،

ــ لا ادري .. انزل وكفى ..

وحت انظر الى السائق كمن يستعين بــه لحسم الأمر ، فلم يلتفت اليّ ، وكان ينظر الى الشرطي بعيون مضطربـــة ، وهو متكىء على مقود السيارة ، فلعنته في سرّي .

واقتادني الشرطي الى مكتب الضابط ، بعد ان طلب الى السائق استئناف السير .

ظلت السيارة واقفة ، وظل السائق متكئاً على مقود سيارته ، وتعالت احتجاجات المسافرين تحثه على الحركة .. لكنها لم تُجد .. وحتى الشرطي نفسه لم يستطع إكراه السائق على السير .. وبغتة رأيته يترجل من السيارة ويدنو من الضابط .. لم افهم شيئاً بما كان يقوله ، وكل ما وعيته أنه كان منفعلاً ، مضطرباً ، يحدث الضابط ويشير اليّ تارة ، والى السيارة تارة اخرى ، وتند عنه حركات ارى خلالها يده تلوّح في الفضاء كمن يهدد .. ثم جلس على كرسي واشار اليّ ان اجلس على كرسي آخر ففعلت .

وبعد فترة صمت ، تفحص الضابط جواز السفر ثم رده اليّ ، وبين استغرابي وتوجسي اذن لي بمتابعة السفر ، فتحركت بنا السيارة ..

خاطر جديد ألحّ علي ، عصف في نفسي ، ان اعرف هــذا السائق .. اعرف عنه كل شيء . فقلت له :

ــ كم اشكرك لخلاصي من أمر ازعجني حقاً .

واجاب :

– وأنا اشكرك ايضاً ..

يشكرني ؟ علامَ ؟ ولِمَ ؟

– علام تشكرني ؟

– لأمر ما ..

– وما هو ؟

وعاد يرقب في مرآته وجوه الركاب وعيونهم ، حتى اذا لمح في بعضهم ، الاصغاء الى حديثنا ، صمت . قلت له مستنكراً صمته :

– تحدث بما تشاء ، ليس بيننا من يفهم ما نقول

ورماني بنظرة عاتبة ، اغضضت معها من بصري .. ماالذي يدريني أن بين المسافرين من يفهم العربية ، ولو بمقدار ضئيل ؟ .. لكن لو فهم ما نقول ، فما الخوف من ذلك ؟ ولماذا يحذره ؟ أنا لا اطلب منه ان يعرفني باسمه مثلاً ، ولا بحياته او بلده ؛ لقد قال لي انه غريب ؛ وقد صنع لي جميلاً لن انساه ، فلماذا لا اعرفه حتى اثيبه على جميله ذات يوم ولو بهدية متواضعة او بذكرى تظل تومض في خاطري ؟

وقفت السيارة في قونية ساعة كاملة ، استروح فيها المسافرون من عناء سفر طويل ، وابتاعوا بعض الهدايا لأهلهم وأحبابهم ولمعشوقاتهم ، اما أنا فلي شأن آخر غير الهدايا ..

وارتشفت معه كوب شاي في أحد المقاهي المجاورة للمرآب ، ورأيت في ذلك فرصة سانحة لأتعرف به .. إننا الآن وحيدان ، ليس من مسافر ولا شرطي سوى نَدل المقهى يمرون بنا حاملين كؤوس الماء وأكواب الشراب ، ولعله أدرك مايعتلج في نفسي فابتدرني بالسؤال :

- جميلة قوتية ؟

- تبدو أنها جميلة ..

- أليست اجمل من رومانيا ؟

- ثمة تفاوت في مقاييس الجمال .. رب بلد جميل في ميزة لايضاهى بها ، يفوقه بلد آخر في ميزة أخرى من الجمال .

وظهر عليه أنه اعجب بهذا التعليل فعقّب :

- هذا صحيح .. لكن هناك بلاداً انفردت بسحرها وعذوبتها ..

وقلت لنفسي : لاشك ان هذه البلاد بلاده ، وخمّنت انها جزر افريقية أومدن تقوم على نهر الدانوب الفاتن ، فسألته :

- ماهذه البلاد المنفردة بجمالها ؟

- ألا تعرفها ؟

- لا أعرفها !

ورنا إليّ مستغرباً فكأنه يريد ان يقول لي : أنت غبي ..

وقلت :

- ما اسمها ؟

- مجهول .. مجهول عندك ، واذن لاحاجة لك في اسمها !

أخذت اتململ ضجراً منه . واكثر من مرة كدت احكم عليه بالعته والبلاهة . ورأيت ان ادعه وشأنه . موقفه المحمود لن أنساه ، لكن ليس من شرط الصنيع الجميل ان يثاب عليه صانعه . ما اكثر النبلاء وصانعي الجميل ، ومع ذلك فهم مجهولون او كالمجهولين !! يموت الجنود في معارك الوطن ، ويثاب القائد وحده ، وهو مختبىء في خندقه او متوار خلف جنوده ، فينسى التاريخ

الجنود ، ويبقى اسم القائد وحده يذكر بالثناء والعرفان ! تعطينا الشجرة ثمارها وظلها وزهرها المانع ، وننسى جذورها التي تمدها بالقتنة والحياة ...

وسخرت من نفسي .. من أفكاري المتناقضة .. لكنني عدت ثانية أقول : ليس شرطاً أن يثاب الانسان على الصنيع الجميل .. واذن فلأدع السائق وشأنه .. إنه لايريد أن يعرفه احد ، او على الاقل لايرغب ان اعرفه انابالذات . ليكن له مايشاء .

لم نقف في بلدة مرسين سوى بضع دقائق ، اذ برح السيارة بعض أبناء المدينة ، وتزود المسافرون الآخرون ببعض حاجاتهم . كم تمنيت لو أطال السائق المكوث في مرسين لاتملى من فتنة البحر المتوسط الذي يحمل إلي اريج الوطن وأنسامه العذاب !! . لكن هاهي ذي الدار قد دنت ، فقرب البعيد وأطل النائي الغريب على الديار الفاتنة .. حاولت أن استقر في مقعدي ، ان اخلد الى السكينة ، فلم استطع .. لقد استفزني دنو الدار .. إنها الفرحة التي تغمر كل نأي قربت ساعة لقائه بذويه .. بصري يرتعش .. يداي تلوّحان .. قلبي يختلج ، روحي تهوّم فوق حلب ومروجها الواسعة .

لمح السائق انفعالي واغتباطي فسألني ، كمن يجهل سر ابتهاجي :

ـ مابك يا استاذ ؟

ـ لاشيء .. لقد اوشكنا ان نصل الى اسكندرون ومنها الى حلب .. فالأهل .. لقد دنا الوطن وبدت سماؤه الزرقاء الجميلة .

ـ هنيئاً لك .. هنيئاً لمن له وطن ، سماؤه جميلة ومروجه خضر !!

لقد كنت قررت ان ادعه وشأنه وألاّ استفسر منه عن شيء ! لكن

باعثاً جديداً حداني ان افهم هذا الانسان ، وقد تلمحت في عينيه اعتالاً مشبوباً ، واضطراباً موجعاً .. فقلت له :

- الم تقل إن لك بلاداً جميلة ؟

- صحيح .. قلت ذلك ؛ لكن بلادي محجوبة بغيوم سود ..

وادركت أنه يرمز بذلك الى شيء آخر ، وان لغته السقيمة قد اخذت تنقى ، وتتوضح ؛ فتفاقم عجبي واستغرابي ، وتركته يستمر في حديثه :

- بلادي جميلة .. وطني أشم .. لاتغيب عنه الشمس حتى تودعه الى القمر ، ولا يرتحل عنه الربيع حتى يمنحه زهو الخريف .. بلادي جميلة ، لكنها ضائعة ؛ حدودها مدفونة في قيعان الألم والكبت والاضطهاد .. هل تعرف بلادي ؟

كان صوته قد تعالى ، ونبراته قد توضحت ، وعيونه قد تألقت بشعاع غريب ؛ وبغتة وقف وترجل فترجلت معه ، والى لوحة كتب عليها « الاسكندرون » اشار بيده ، وبلغة عربية فصيحة كفصاحة السماء في نيسان قال :

- من هنا تبدأ بلادي !!!

الرسالة الحادية عشرة

إلى أبي الطيّب

خليل الخوري — بيروت

أبا الطيّب :

مضى عامٌ ، وبعض العام ، أحداث عوَتْ ، وتراكمت قصصُ
وأفلح في انتزاع الأمن من أحداقنا من كان يغوينا
وما زالت جوانحنا مسارح للكآبة ، لا أمانينا
أمانٍ ، والوعود تمزّقت ، وحصادنا غصصُ
وفي عصر الثعالبِ للضياغم يحبك القفص
وفي زمن الخنافس للخنافس وحدها الفرصُ
أتعرفُ ما الخنافس يا أبا الطيب ؟
رؤوسٌ مثلما قُلبتْ على فوهاتها أصُصُ
تهدّل شعرها حتى لنحسبها حوادينا

رؤوس أينعت ـ يا يا وقاك الله ـ جلّ السلُّ والبرصُ
يميناً لو مشى الحجّاج محتسباً ، يداورها ويقتنص
لراحَ يضجُّ من تعبٍ ، وراح يصيح آمينا .

أبا الطيّب :

هي البدعُ التي نُومى بها ، البدع الجديدات
نزوان الغرب تقذفه إلى الشرق الأعاصير الخبيثاتُ
ونهضُمهُ ، ويغدو خبزنا اليوميّ ، تغدو رِقّه المشتاةُ
بما يرضاهُ ، لو أبصرتَ « عيّوشاً » تسير بشارع الحمراء
وساقاها ـ وأفدي مجد ساقيها ـ كما تختال رايات
وقد حسرتْ الى أعلى فأعلى ، خفَّف الغلواءُ
ولا تدهش ! الى أعلى فأعلى قلتُ ، حتى .. لا
أنا خجلٌ وتزجرني العباراتُ
لو انك شمتَ عيّوشاً يسيلُ وجودها إغراء
لكنت بكيتَ ربات الجلابيب
وكنت لعنتَ ناشزة الأعاريبِ
لو أنك شمتَ ما زجُّ الحواجيب
ولفُّ الساقِ فوق الساقِ والإيماء والايحاء
وكيف تشدّ نظرتك الغواياتُ

وكيف تمايلُ البيضِ الرعابيبِ
اذن لرأيت ثامنةَ الأعاجيبِ .

أبا الطيّب :

وطنُوسٌ يسير على خطى جوني
بمنظارٍ وعثنونٍ وغليونٍ
وللوسكي عليه سطوة الحمرِ الشياطينِ
وغينٌ راؤه فاسمع ، ويخرجها بتنوينِ
ويعلكها ، ويمزجها ،
ويخرجها على منوالِ أهلِ الوينِ والسينِ
لو انك شمت طنوساً يسير على خطى توني
اذن لرأيت بدعاً في الأفانينِ

أبا الطيّب :

أتسأل بعد هذا عن فلسطين ؟

وسادة من خشب

محمد مهران السيد — القاهرة

لاشيء عنده اسمه التبات والنبات
عطارنا العجوز ، لايبيع غير الكحل ، والبان ، والمخدرات !!
يقول كل ليلة .. بمجلس القمر
« .. ومنذ أن بلوت حلوها
ومرها
أنفقت عمري الكسيح لأصادق الكتب
ففي نخاعها الكذب
ولم أثق
بألف صف ، قام وانكسر
الا بصاحبي ، أبي نواس !! »
....

لشيخنا النحيل ، كل ليلة حكاية
تلف بعدها الحضور ، أذرع سوداء .. مالها نهاية
لم يلعن الزمان مرة ، ولم ينسب مصيبة الى القدر
يقول ، نسل آدم .. البلاء والخطر

تعريف

ولم يكن من البلد
نسمع من عجائز البيوت ، انه مع الظلام والمطر
القى عصا الترحال .. داخل « المقام »
وعندما أراد بعضهم سؤاله ، تدحرجت على الحصير رأسه ونام
.....

وقيل منذ جاء
لم يغش مأتماً ، ولا بكى أحد ،
وعاش بيننا يبيعنا الطيوب ، والمكيفات
وصار مقصد الرجال والنساء .

بعض خطاياه

البداية :

.. وحط في حجوي ، وكان أخضر الجناح
وقلت أقبلت عليّ ، بعد غيبة .. وأشرق الصباح

وقلت ابلعي الجراح
وقلت فيما قلت ، أشياءً ، وأشياء
أقلّها ، فدى لك الحياة .. سيدي
وكان أن كبر ..
وذات يوم ، أغمد المنقار في عيني .. وطار !!
(فاصلة)
حملت شاهدي ، وكان من خشب
فقد وجدته يقوم فوق قطعة الحصير .. مذ ولدت
وعندما كبرت
جعلته وسادتي التي يموت فوقها التعب ،
.. حملته وسرت
ـ ما كنت أستقر في مكان ـ
سيان ، سيان ..

على الطريق :

وكان أن هبطت قرية ، تبخر اسمها .. مع السنين
فمعذرة
ـ أطرق بعدها .. وقال ـ
فقد بلغت أرذل العمر
هيه ..
هبطت قرية ، قرأت في عيون أهلها .. مرارة النداء

وقالت العصا ، هنا هنا .. فلا تخيب الرجاء
وقلت ، فلتكن ارادة السماء ..
.. وعشت بينهم ،

....

قالوا ، بأن أرضهم .. قليلة العطاء
سحابهم بخيل
يزورهم ، ولا يفك صرة من الصرر
انظر الى الوجوه ، والبيوت ، والخيول
حتى عصاك مذ قدمت ، قد أصابها الذبول !!
وان شيخنا يقول ..
غداً ، ستقذف الرياح .. بالثمار والذهب
غداً يجيئكم بوجهه العجيب ، مثل صندوق ثقيل
فلتنصتوا اليه ، مرة .. ومرتين
ولتفتحوا صدوركم له ، وترفعوا اليدين
فقالت الحواس .. « سمسار لتاجر مريب »
وقلت في العلن :
« .. ألا يكون شيخنا الجليل .. قد أصابه الوهن ؟
فالارض اينما تكون .. تكره الدخيل
والارض فيها الماء
والحب ، والزهور ، والغناء
وكل ما تفتشون عنه في مجاهل الدروب ؛

.. وكان صمت ، مثل أطنان النحاس
ثم هوت .. ماذا ؟
تقول مثلما يقول ذلك المخبول !!؟
قد قال مرة .. كما تقول ..
فكان أن نفي
فاذهب اليه ، حيث يأكل الجراد في الخلاء
الى العراء
الى العراء ..؟
وكان أن طردت ذات ليلة .. بمزق البدن »
(فاصلة)
حملت شاهدي ، وكان من خشب
فقد وجدته يقوم فوق قطعة الحصير .. مذ ولدت
وعندما كبرت
جعلته وسادتي التي يموت فوقها التعب
الخ ..
اظنكم ، تعون ما قلت

النهاية :

.. وقلت في الطريق .. فلأعد
فقد تجف هذه الجراح ، اذ يمسها الكرام في البلد
وقد تنام قرحتي .. الى الابد ،

وسرت اسحب الجسد
بعثرت أكثر الرصيد ، لا أنا بلغت مطلع النهار
ولا احتفظت بالجلد ،
فقد رأيت انني أدور كالغبار
ولم يدلني أحد ،
وها أنا ، وشاهدي الذي جعلته وسادتي التي يموت —
— فوقها التعب
أعطي ، والعق الزبد .

شاهدتان على قبر الخليفة

فايز خضّور

الليلة الأخيرة

سُبحة كان الخليفه
يستريح الوهم تشريعاً على حبّاتها يحتجّ بالتدجيلِ
لا شفعاً يفيد الوترَ ، بالمعروف يقضي
للرعيّه !!

للضيافه
عنده خمرٌ تخطاها الحلال البكر، عطرٌ اعجميُّ البوح
غبيُّ السريره

كلّما انهدّت أميره
سرّح الليلُ نزيفه .

والجواري

النجمُ بسّامةُ الوشم ، تثنّت ، راغَ عن تفتيحها

جوعُ الجزيرهِ :

« هاتِ يا زرياب ، أشعلْنا ، وجمّر فاتنات الروم ،

موموهنّ ، إلا الفارسيه . .

نحن في الألفيّ من ليل العرار

سلْ وزيرَ الصدق، سلطانَ السبايا الشقر ، دوّخنا :

مزايا العتم لم تترك لنا حوصَ الإزار .

نحن سُحنا ،

ونّق الوعي قواراً في شرايين الوقار

وتمادت ترغلات الضوء ، يا شطّ التلهّف ، وارتمى -

فينا ارتجاج النار ، رهاجاً على الخلجان ، أسعفْنا ،

سألنا العونَ ، ياموج الدّوار .

* * *

وقتها كان الشتاء

يجلد النخلَ ، يعرّي الرملَ ، يبكي دمعه الطينيْ

صفصافَ الفراتْ .

والسُّباتْ

ألجمَ الأفراسَ ، شدّ الأعينَ الثملى ، كئيباً ، في

مقاصير الخليفه .

زجمو الوعد، ودوّت صرخةٌ بلهاءُ في المقصورة الحُسين،
قالوا : صاعقه

فأفاقت شهرزادْ

(عريُها رهز العبيد السود، قبل الخصي، شوقٌ راعفٌ
يتهل من قبو الغرابه) ..

وتقرّت بعلها المطروح ، هزّته بغنج العاشقه
صادفته في سرير العرش جيفه ..!!
واستدارت تستعير الدمع من قارورة ريّا مطرْ ..
ضحكت منه وناحت :
آه يا شرخَ القيامه
« علّها وافته من ألف وليله »
آه يا ألفاً وليله
أسعفوني بالمواويل الأسيفه
دثّروني بعمامات الخليفه
« سيدي لا كنتَ ، لا مرّت بثواك غمامه »
وانثنتْ تستبشر الأشياءَ في عيد السلامه
« آه من عيد السلامه »

* * *

لموت الخليفه
لبسنا الليالي
عباءه . .
وحيث استراح ارتمينا : قطيعاً وراءه .
« هو الربّ والحاكمُ » .
لعلّ النصيحه
تخفّف عنا عذابَ النفوس الجريحه
ونرتاحُ ، لا نُظلَمُ .

* * *

لمجد الخليفه
لمجد جواري الخليفه
شربنا من الريح ، دخنا
وداخ بأعصابنا ، داخ ليل النخيلْ
وماتت جمال الصحارى حنين
وحتى الزناديقُ ذابوا عويلْ

* * *

لكَ العزُّ ياسيد المؤمنين .
بقصركَ ، كنّا تِلالاً ، وياما نهبنا النبيذ

وياما سحرنا الجواري .

وعشنا الترقّبَ والخوف في شهوزاد السنين.

غفونا على الذل ، أطوى من الوعد في شهريار

إذا عسعس الليل واستردفَ الوصلُ بالسامرين .

وياما سمعنا انبهارَ النباحْ

إذا غلغلتْ في الحرير المقصّب كفُ الصباح

* * *

عزاءكَ ، نحن حواشيك ، نرضى ، وعاياك ، نرضى ،

غبارَ البقاءْ

هدرتَ مصيرَ المحبين ، ياأكرم الناس، فاضحك لعري

الرجولة ، لو أننا ، آه لو أننا شهرزاد الوصيفه

لكنّا - كذبنا - بكينا عليكْ . . !!

قبل أن أعرفكم

عمر أبو سالم - عمان

- ١ -

قبل أن أعرفكم ..
جئتكم من خلف سور الليل .. ابكي
تشهق الريح بعوي .. تتمرى ،
في جراحاتي الطريه
رسمها يغوي حجار البيت من حولي ،
ويطويها معه
عابراً كنت .. وكان الموت حولي .. زوبعه
حفوت في حزن وجهي .. رعب كل الاقنعة

* * *

- ٢ -

قبل أن أعرفكم ..
كنت وحشي العيون
ابصر الصحو .. شتاء .. وثلوجاً معتمه
وأصوغ الحزن في قلبي .. مراره
وأجوس العمر أمشي دون وجه ،
انتهاه مناره
كنت أبكيكم طويلا .. حين اشقى ..
بعيون كالرؤى .. تكبر .. تهرم
كنت أعلم .. ؟؟
أن حزني بفم الريح .. يدور
يتنزّى شهقة .. في إثر شهقه
ويجوب الليل من منفى لمنفى،
تحت عتبات الأزقه

* * *

- ٣ -

حبكم كان صلاتي .. وسكوني
واخضرار اليبس عندي .. ويقيني
كان اذ ينسلّ .. مبتلا بدربي ويضيء

عتمة الليل .. وسقف الدار فوقي ،

والشقوق

كنت في ظل خطاكم .. استضيء

أرقب (المد ّ) الذي يأتي .. ويمضي ،

كالبروق

نحو أرض تزدهي فيها الفصول

ويعر ّي الصيف نهديها ،

على خضر الحقول

— ٤ —

آه .. كان الأمس في عيني ّ وهجا ،

ورسوماً لا أعيها

كنت ادري أنني .. سوف أعود

ملء كفي ّ خموراً .. وشموساً

ووعود

وعلى الصدر نياشين مضيئه ..

لم اكن استرحم الموج .. وسر ّ الغيب ،

والعواف .. والريح الجريئه

ان تضيء الموسم الآتي . . بوجهي ،
وبأحزاني الصديثه

* * *

— ٥ —

قبل أن أعرفكم . .
صمتكم .. كان معي
صلوات تتغنى .. في دمي
ورويء .. ترعش بالخصب بأعراق ،
الفصول
تملى النبض .. في الارض البتول
تحرق الليل .. وتستجلي نهارم
تسأل الغائب عودا . . ومع العود ،
البشاره

اسرائيل الكبرى [1]

تأليف : د أسعد رزوق

عرض وتحليل محيي الدين صبحي

الكتاب الذي نقدمه موسوعة في الفكر الصهيوني كاستراتيجية وتكتيك . يبلغ الكتاب من الاحاطة والتعمق والتفصيل والاستقصاء والوضوح في المنهج والأداء ما لم يبلغه أي كتاب عربي في هذا الموضوع حتى الآن ، بحيث يصح القول عنه إنه موسوعة مصغرة في القضية الفلسطينية والعدوان الصهيوني.

وقد طرق الكتاب موضوعات شديدة الحساسية ، وربما كانت ـ مع ذلك ـ اول معالجة لها بالعربية أو أوسع وأدق . وأهم ماعالجه :

(١) منشورات منظمة التحرير الفلسطينية (مركز الابحاث) بيروت — ١٩٦٨

١ – دراسة المطامع الصهيونية التوسعية ومواقفها السياسية ومشروعاتها منذ هرتزل الى ما بعد عدوان حزيران .

٢ – دراسة التفكير الاستراتيجي للاستعمار البريطاني في الشرق الأوسط. ولقاء مصالحه مع الحركة الصهيونية .

٣ – ايضاح النظرة الاستعمارية الاستعلائية ضد العرب، بدراسة اصول الفكر الصهيوني والمخططات الاستعمارية .

٤ – التوضيح الشديد لالتقاء « المتطرفين » مع « المعتدلين » الصهاينة ازاء كل خطوة تنفيذية .

٥ – متابعة الأحداث الى ما بعد اعلان « اسرائيل الكبرى » .

اننا نقترح – تعميماً للفائدة والوعي – أن تطبع الكتاب طبعة مبسطة حتى لا يكون « علم النخبة » وقفاً على القارىء المثقف .

منذ حملة نابليون أخذ الاهتمام الديني بفلسطين وسيناء يسعى الى التقرب من المصالح السياسية والاقتصادية والثقافية . فكانت بريطانيا في طليعة المهتمين ببسط سيطرتهم على هذه الرقعة من العالم . ولجأت في ذلك الى مختلف الوسائل ، وتحت ستار القاعدتين المعروفتين في السياسة الخارجية البريطانية ازاء الامبراطورية العثمانية : الخوف الجديد من روسيا، والتنافس القديم مع فرنسة . ثم جاء الاندفاع الالماني صوب الشرق فاتخذ صورة التوسع الاقتصادي والتغلغل العسكري في الامبراطورية العثمانية . كل ذلك زاد من تخوفات بريطانيا أن يمتد هذا النفوذ الى مناطق العراق والخليج العربي، وصارت تعتبر أن هذا التوسع المرتقب يستهدف المناطق المتاخمة لشرقي السويس بغية تهديد طريقها الى الهند .

وكانت قد أنشئت في سنة ١٨٣١ « الجمعية الجغرافية الملكية البريطانية »

واعتبرت العالم مسرحاً لنشاطها . وخصت سيناء وفلسطين ببعثة كان على رأسها السير آرثر ستانلي الذي عاد ونشر نتائج أبحاثه في كتاب اصدره بعنوان « سيناء وفلسطين » .

لكن الجمعية الجغرافية لم تمعن أبعد من ذلك في غايتها ، بل تلقف نشاطها « صندوق اكتشاف فلسطين » الذي انشىء عام ١٨٦٥ وقد رفدته جمعيات فلسطين المختلفة وجمعيات الكتاب المقدس التي تولت الغزو التبشيري وعمليات الغزو الصليبي المتستر .

ومما يلفت النظر أن معظم الذين قاموا بالتنقيب والاكتشاف كانوا من العسكريين ، ومن سلاح الهندسة الملكي بالضبط ، وقد تنقل معظمهم بين قبرص وسورية وفلسطين ومصر والسودان ، ووضعوا خبرتهم العلمية تحت تصرف الساسة الاستعماريين . وهاكم بعض الأسماء المألوفة على الأسماع العربية : كتشنر ولورنس ووارن وكوندر . هؤلاء جميعهم ضباط عملوا في مسح الاراضي العربية في فلسطين وسورية ثم شاركوا في حملات الاحتلال البريطاني لمصر وفلسطين . وقد ساهموا جميعهم في تأليف كتب اشاعت في اوساط الرأي العام الاوروبي ، خاصه وعامة ، أن فلسطين أرض خربة مهجورة يمكن لأي مهاجر أن يستوطنها دون أن يخل بسلم المنطقة او بمصالح سكانها . ومن المعروف أن الحركة الصهيونية الى اليوم تستغل هذه الصورة المشوهة لتدعي أنها انما تحصل بالحرب على اراض خصبة خالية من السكان .

على أن الصهيونية لم تفد من هذه الفكرة وحسب بل افادت من جميع اعمال العاملين في صندوق اكتشاف فلسطين . وفي طليعة هذه الاعمال نشر الخرائط لفلسطين والأردن وسورية ، وتعيين المواقع التاريخية عليها ، وتثبيت

الأسماء الواردة في العهدين القديم والجديد . ثم — وهذا هو الأهم — تبيان صلاحية المنطقة للاستيطان الكثيف بسبب خصب التربة وتوفر المياه وجودة الطقس . حتى قال مؤرخ الحركة الصهيونية ناحوم سوكولوف ، اعترافاً بخدمات اولئك :

« وجاءت الشهادة التي ادلوا بها . بمثابة توكيد على الحقيقة القائلة بأن تلك الارض يمكن تحويلها الى جنة واحدة شاسعة الأطراف » .

وقد عاصرت جهود العاملين في الصندوق حركة ظهور جمعيات « أحباء صهيون » في روسيا القيصرية والامبراطورية النمساوية . فقد اشترك بعض اليهود العدميين في اغتيال القيصر الكسندر الثاني . وكان محبوباً لدى الشعب بسبب قوانينه في تحرير الفلاحين، مما ادى الى اضطهاد الروس لليهود رسمياً وشعبياً منذ عام ١٨٨١ فحصرت اقامتهم في قطاعات معينة ومنعوا من شراء الاراضي والعقارات وحددت نسبتهم في جامعات الدولة .

بذلك وجد بعض دعاة التحرر اليهودي ذريعة لمحاربة الاندماج والدعوة الى الهجرة حلاً للمشكلة اليهودية . فأصدر موشيه ليلنبوم عام ١٨٨٣ كراساً بعنوان « بعث الشعب اليهودي في أرض أجداده المقدسة » . وكان بنسكر قبله بعام قد اصدر كراساً بعنوان « التحرر الذاتي » . وسرعان ما قامت جمعيات « أحباء صهيون » وجعلت شعارها « الى فلسطين » ، وحين توحدت جعلت اسمها « جمعية تقديم المساعدات للمستعمرين والصناع اليهود في سورية وفلسطين » .

في الوقت نفسه — « عام ١٨٨٢ » — ألف بيرنباوم في جامعة فيينا جمعية « قدية » للطلاب اليهود ، واعتنقت مبادىء بنسكر في محاربة الاندماج ودعاته ، وفي بلورة الشعور القومي اليهودي وفي استيطان فلسطين . وبيرنباوم هو الذي صك لفظة : الصهيونية ، في كراس اصدره عام ١٨٩٣ بعنوان « البعث القومي للشعب اليهودي في ارضه كوسيلة لحل المسألة اليهودية » .

ودعوة « قديمة » التي تعني « الى الامام نحو الشرق » هي التي اسست التقاليد العسكرية اليهودية وجعلتها على غرار التقاليد الجرمانية . هذا وقد نقل مارتن بوبر – الفيلسوف الصهيوني فيما بعد – حركة احياء صهيون الى برلين ثم الى باريس ولندن قبل حلول عام ١٨٩١ .

وهكذا لم يصدر كراس هرتزل « الدولة اليهودية » عام ١٨٩٦ الا وكان الرأي العام اليهودي ناضجاً للعمل على تنفيذ الفكرة ، وسرعان ما عقد المؤتمر الصهيوني الاول في بازل عام ١٨٩٧ وتحددت العقيدة الصهيونية في برنامج بازل المذكور على الشكل التالي :

١ – العمل على استعمار فلسطين بواسطة العمال الزراعيين والصناعيين اليهود .

٢ – تنظيم اليهودية العالمية وربطها بواسطة منظمات محلية ودولية تتلاءم مع القوانين المتبعة في كل بلد .

٣ – تقوية وتغذية المشاعر اليهودية والوعي القومي اليهودي .

٤ – اتخاذ الخطوات التمهيدية للحصول على الموافقة الضرورية لتحقيق غاية الصهيونية .

وبلغ من نجاح المؤتمر ، بسبب التقاء اعضائه في الرأي والعزيمة ، حداً جعل هرتزل يعلق عليه في مذكراته بقوله :

« لو أردت ان أختصر مؤتمر بازل في كلمة واحدة – وهذا ما لن أجاهر به صراحة – لقلت : في بازل أسست الدولة الصهيونية . ولو قلت ذلك اليوم لقابلني العالم بالسخرية والضحك . ولكن بعد خمس

سنوات على وجه الاحتمال ، وبعد خمسين سنة على وجه التأكيد ، سيرى هذه الدولة جميع الناس » .

ذلك ان هرتزل نفسه قبل عقد المؤتمر بسنتين كان قد مهد له بمجموعة مراسلات ، مع البارون اليهودي هيرسن صاحب الملايين وزميله روتشيلد وعدد من رؤساء الدول الاوروبية بينهم بسمارك الذي تلقى التأكيد بأن «الأرض الموعودة هي إلى حيث نحملها » إذ ان مشروعه كان يعتمد على جمعية من الجغرافيين اليهود تقرر « إلى أين نهاجر ! » .

ان الحركة الصهيونية حتى ذلك الحين لم تكن قد استقرت على رأي بخصوص ارض الهجرة اليهودية . فقد وضع الدكتور لوفنتال عام ١٨٩٠ خطة مولها البارون دي هيرسن تضمنت استملاك مليونين ونصف المليون كم٢ من الأراضي الارجنتينية . وقد وافقت حكومة الارجنتين غير ان المشروع فشل . ثم اتصل هرتزل باللورد روتشيلد فطلب منه سيناء ، ثم طلب من تشمبرلن قبرص ، لكن هذا اقترح عليه استعمار يوغندة ، ثم قابل ملك ايطاليا وطلب منه ان يؤيده في استعمار طرابلس الغرب ، ثم قابل السلطان عبد الحميد الثاني الذي عرض عليه العراق بعد ان كان موقف الخلافة العثمانية من الحركة الصهيونية متذبذباً بين منع اليهود من الاستيطان بفلسطين عام ١٨٨٢ وبين السماح لهم او الاتفاق مع هرتزل مقابل ان يضمن اليهود ديون الامبراطورية العثمانية . لكن جميع المشروعات باءت بالفشل من جراء الاعتراضات التي أثارها الزعماء الصهاينة إصراراً منهم على أرض فلسطين – بالرغم من تأكيد هرتزل لهم بأن أي أرض في العالم ليست سوى نقطة تجمع للوثوب على الهدف التاريخي : فلسطين .

في هذه المرحلة من البحث عن وطن ، تطالعنا خصائص التفكير الصهيوني

التي سوف تطغى عليه الى النهاية ، وأولها ان هرتزل ومشايعيه لايحسبون حساباً إلا للدول العظمى . لذلك نراه يجوب عواصم العالم متنقلاً بين فينا ولندن وباريس وروما والقسطنطينية وبرلين باحثاً مع حكام هذه العواصم أمر التنازل له عن قطعة أرض للشعب اليهودي ، على حد زعمه ، مهملاً حقوق السكان الأصليين في جميع المناطق التي وقع عليها الاختيار ، حتى اضطر ملك ايطالية ان يقاطعه أثناء حديثه عن ليبيا قائلاً له :

— « ولكن هذه ايضاً وطن للآخرين ».

لكن هرتزل ربيب التفكير الاستعماري في القرن التاسع عشر كان يؤمن وأتباعه « أن كل أرض خارج اوروبا يجوز ان يحتلها عنصر اوروبي »[1].

والخاصة الثانية التي ستطبع التفكير الصهيوني بطابع ثابت هي قضية التوسع . ففي خريف ١٨٩٨ قابل هرتزل مستشار الوايخ الثاني ليشرح له طموح الصهيونية الى استعمار فلسطين ، فسأله المستشار عن حدود الرقعة التي يبغون الحصول عليها ، وهل تمتد شمالاً حتى بيروت أم تتعداها ، فأجابه هرتزل اجابة غدت مبدأ من مبادىء التفكير الصهيوني : « سوف نطالب بما نحتاج اليه — كلما ازداد عدد المهاجرين ، ازدادت حاجتنا الى الأرض » .

وحين غادر برلين الى الاستانة سنة ١٩٠٢ لبحث مطالب الصهيونية من الباب العالي سجل هرتزل في يومياته هذه الملاحظات :

« المساحة ! من نهر مصر الى نهر الفرات . نريد فترة انتقالية في ظل مؤسساتنا الخاصة ، وحاكماً يهودياً خلال هذه الفترة . بعد ذلك تنشأ علاقة كالتي

(١) مكسيم رودنسون : اسرائيل واقع استعماري ، ط وزارة الثقافة .

تقوم الآن بين مصر والسلطان . وما ان يصبح السكان اليهود في منطقة ما ثلثي مجموع سكانها حتى تصبح الادارة اليهودية سارية المفعول على الصعيد السياسي ».

أليس هذا ماجرى في فلسطين عام ١٩٤٨ ؟ بل أوليس هذا مايجري الآن في القدس وجنين والخليل واراضي الجولان ؟

الخاصة الثالثة التي تطالعنا في تفكير هرتزل وأشياعه ، احتقاره للسكان الأصليين وعدم اعترافه بهويتهم القومية أو ادعاؤه بأنهم خليط من العروق، ويبرز هذا الاتجاه حين يتعلق الأمر بفلسطين . ففي مقابلته ذاتها مع المستشار الالماني جرى بينهما الحوار التالي :

هرتزل ـ سوف يتم شراء الأرض من مالكيها الحاليين ، وفقاً للقانون المدني .

المستشار ـ ومن هم هؤلاء ؟

هرتزل ـ العرب واليونان وذلك الجمع الشرقي الخليط بأكمله .

وقبل ذلك جاء الكابتين وارين الى فلسطين عام ١٨٦٧ (وقد صار فيمابعد الجنرال السير تشارلز وارين) وكان يصحبه فريق من سلاح الهندسة موفد على حساب صندوق اكتشاف فلسطين فنشر عام ١٨٧٥ كتاباً دعاه «أرض الموعد» وحض فيه « شركة الهند الشرقية » على تطوير فلسطين عن طريق الهجرة اليهودية . وقد جاء فيه مايلي :

« من المرجح ان يتبادر الى الأذهان في الحال : (ماذا يحدث لعرب فلسطين ؟) وأجيب متسائلا : (من هم العرب ؟) ـ إنهم ليسوا أتراكاً على وجه التأكيد ، ومعظمهم ليس من عرب الجزيرة أو من الصحراء . من هم إذن ؟ ... ان سكان فلسطين ينتمون الى عرق خليط : بعضهم يتحدر من الكنعانيين ،

والبعض من اليهود ، والبعض الآخر من الجزيرة العربية . ومن الواضح ان كثيراً منهم قد اعتنق الاسلام على سبيل الراحة ! ».

ولا ريب ان مثل هذه التقولات تنعكس على تصريحات الزعماء الاسرائيليين بعدم وجود عرب في الشرق الأوسط ، بل طوائف دينية مسيحية وشيعية ودرزية وسنية ... الخ .

الخاصة الرابعة، التي تبرز في تفكير هرتزل وأشياعه ثم تنسحب على الفكر الصهيوني بشكل عام، روح العمالة التي تسيطر على نظرة هرتزل الى اليهود والدولة اليهودية بشكل عام . إذ ما ان يفكر بمشروع الدولة حتى يفكر بتوظيف هذا المشروع لدى الدول العظمى :

فقد كان شعار لورانس أوليفانت ـ وهو انجيلي المذهب استعماري النزعة ـ: « تجديد شباب تركية بواسطة اليهود وتحت اشراف بريطانيا » . وكتب متنبأ بدور اليهود ودولتهم المقبلة يقول :

« فالأمة التي تنصر قضية اليهود وعودتهم الى فلسطين ، يمكنها الاعتماد على تأييدهم في عمليات مالية واسعة النطاق ، وعلى النفوذ القوي الذي يتمتعون به في صحافة العديد من البلدان ، كما يمكنها الاعتماد على تعاونهم السياسي في تلك البلدان نفسها ، بما يؤدي بالضرورة الى شل النشاطات الدبلوماسية والأعمال العدائية من جانب تلك الدول الكبرى المعادية للدولة التي تحالفوا معها » .

فالى أي حد صدقت نبوءة هذا المبشر الاستعماري ؟ إن من يدقق في دور الحركة الصهيونية المعادي للدول المنصفة للعرب بعد حرب حزيران يدرك ان الصهيونية ولدت أداة كاملة للعدوان والتآمر على الأمة العربية وشعوب العالم.

أما هرتزل بالذات، فكان دور اليهود أساس مساومته مع الدول الكبرى.

ففي الأستانة ، طلب إليه الصدر الاعظم خليل رفعت باشا تحديد المساحة التي يبتغيها فأجاب :

« يجب قياس ذلك لقاء المنافع التي نقدمها . كلما حصلنا على مزيد من الأرض ، نكون على استعداد للقيام بتضحيات أكبر » .

إن هـــذا المقياس ينطبق اليوم على الحركة الصهيونية أشد من أي وقت مضى .

ونرى هرتزل يغري وزيري خارجية النمسا وروسيا القيصرية بالموافقة على مشروع خلق « وطن للشعب اليهودي ، في فلسطين ، يضمنه القانون العام » عن طريق التصريح لها بأن هـــذا المشروع سيمنع تحول الشباب الصهاينة إلى الحركات اليسارية الناشئة .

وحين بـدأ الرايخ الثاني يشكل قوة عالمية ذات نفوذ في أوروبا والامبراطورية العثمانية سعى الصهيوني ديفيزتريتش إلى اقناع السلطات الألمانية إلى بسط حمايتها على المسلمين واليهود معاً لأن « اليهود يشكلون ـ بمعنى من المعاني ـ عنصراً من الشرق الأدنى في ألمانية وعنصراً ألمانياً في تركية . »

ونجد بودنهايمر صاحب شعار « يا صهيونيي العالم اتحدوا » يقدم مشروعاً للخارجية الألمانية أثناء الحرب العالمية الأولى ، ينضم بموجبه اليهود البولونيون والروس الى الجيوش الألمانية الزاحفة التي جاءت « لتحريرها » من النير الروسي !! وهو القائل لأحد مناقشيه :

« أنت تريد الحصول على فلسطين من أولئك الذين يحتلونها بعد الحرب ، وما عليك إلا أن تأخذ دوماً بعين الاعتبار أن ألمانية قد تخرج منتصرة . »

ولا ريب في أن هذا التفكير باللعب على الحبلين صاحب زعماء الصهيونية

خلال تاريخ الحركة إلى اليوم ، مع فارق بسيط واحد : وهو أن هؤلاء الزعماء تخلوا عن حذرهم فعادوا إحدى القوتين عداء لا مجال للرجعة بعد .

الخاصة الخامسة للحركة الصهيونية اعتمادها في نموها الذاتي على اللاسامية، ففي مذكرات هرتزل وردت المقتطفات التالية :

« ان قوتنا تنمو مع ازدياد الضغط الذي نتعرض له » .

« العدو ضروري لأرفع مجهودات الشخصية الانسانية » .

وقد تابعه خليفته وايزمان بقوله :

« إن وضع اليهودي المتحرر – على الرغم من كونه لايدرك ذلك بنفسه – أكثر مأسوية من وضع أخيه المضطهد . »

ولقد كشف الكثير عن التعاون الخلفي بين النازية والصهيونية . إذ أن الأخيرة تستغل دائماً أخطاء وأفضال القوى الكبرى ما دامت لم تربط مصيرها بالتفاهم مع البشر بل مع القوى الامبراطورية . ولعل هذا الدرس قد دخل في الوجدان الجمعي لليهود بعد أن حطمتهم امبراطورية وأعادتهم امبراطورية مرتين على التوالي . بحيث إننا لا نشك بأنه لو تغيرت نتائج الحربين العالميتين لما تغير مصير فلسطين على يدي المستعمرين ، وبغياب القوة الذاتية للعرب .

أما علاقة اليهود مع العرب فقد خططوا لها منذ البداية أن تعتمد على القسر والاغتصاب والاستعلاء . ففي مؤتمر بازل قال شايتكين : « المرء لا يشتري أرضاً ، بل يستولي عليها ويأخذها لنفسه » . كذلك يجد نورداو يهودية العضلات وحب قعقعة السلاح . وقد أدت التعاليم الفاشستية هذه إلى تأليف « الفرقة اليهودية » التي بلغ عدد أفرادها في نهاية الحرب خمسة آلاف رجل . ولم تكن بريطانيا بحاجة إلى معونة هذه الفرقة لتدحر الأتراك ، فقد كفاها الثوار

العرب هذه المهمة وأوفوا على الغاية في استبسالهم ضد الأتراك . بل إن الفرقة اليهودية لم تدخل فلسطين إلا بعد أن حررها العرب من الحكم العثماني . فقد استولت قوات الأمير فيصل على العقبة والبحر الميت في تموز ١٩١٧ وعلى القدس في كانون أول ١٩١٧ ، بينما وصلت الفرقة اليهودية إلى فلسطين في آذار ١٩١٨ لتزعم بريطانيا والصهيونية فيما بعد أنها حررتا الأراضي المقدسة من حكم الأتراك وليزعم جابوتنسكي فيما بعد أن هذه الفرقة « افتدت ميراث اسرائيل » ولهذا السبب تتقدم المنظمة الصهيونية إلى مؤتمر الصلح بمذكرة تطالب فيها بأن يتم تحديد فلسطين بصيدا وجبل الشيخ شمالاً والخط الحديدي الحجازي شرقاً والبحر المتوسط غرباً وفي الجنوب يتم الاتفاق على الحدود مع الحكومة المصرية .

وكانت هذه الحدود وسطاً بين الصهاينة الذين يرون حدود اسرائيل تمتد من طوروس الى السويس وبين وعد بلفور الذي ضمن للشعب اليهودي في فلسطين « وطناً يعترف به القانون الدولي » دون أن ينص صراحة على انشاء دولة يهودية ،مع أن نورداو كان يفهم منه أن تمتد حدود أوروبة الى الفرات وتهجير العرب الى ما بين النهرين ، بدعوى أن العراق يتسع لسكانه وسكان سوريا وفلسطين ولبنان والأردن . واذا لم يتسع ففي الصحراء متسع للجميع كما كان يقول جابوتنسكي في الثلاثينيات من هذاالقرن . وجابوتنسكي أوضح الزعماء الصهاينة في الاعلان عن نوايا الحركة في العداء ضد الأمة العربية ، اذ هو القائل :

« لا يمكننا حتى ولا دعم الحركة العربية ، لأنها تقف منا موقف العداء في الظرف الحالي . ونفرح من صميم القلب لكل فشل تمنى به هذه الحركة ، ليس فقط في شرقي الاردن المجاور أو في سورية فحسب ، بل وفي مراكش ايضاً » .

أما تلميذه وخليفته مناحيم بيغين صاحب مذابح دير ياسين فهو صاحب التصريح التالي :

« لن يكون سلام لشعب اسرائيل ، ولا لأرض اسرائيل ، حتى ولا للعرب ، ما دمنا لم نحرر وطننا بأجمعه ؛ حتى ولو وقعنا معاهدة الصلح . . »

ولكن ، ما هي حدود « أرض اسرائيل » ؟ هذا ما لم يجرؤ مسؤول صهيوني أو اسرائيلي على تحديده . ويضطلع كتاب اسرائيل الكبرى بعرض المشاريع المختلفة التي تقدم بها الصهاينة ، فمن النيل الى الفرات ، أو من حمص الى العريش ، أو من دان الى بئر السبع ، لا يهم . اذ يبدو من الواقع العملي أن حدود اسرائيل هي كل منطقة من الأرض العربية يصل اليهـا جندي اسرائيلي . ولا عبرة بالتصريحات التكتيكية التي يطلقها المسؤولون الصهاينة حول « الحدود الآمنة » أو « الحدود الدائمة » أو « الحـدود الطبيعية » أو « الحدود التاريخية » فقد كتب آبا ايبان وزير الخارجية عام ١٩٦٥ انه يجب « الرجوع باستمرار الى خريطة الشرق الأوسط ... وليس من السخف أن نتصور قادة العرب يطالبون في المستقبل بالحـاح ، بالعودة الى حدود ١٩٦٦ أو ١٩٦٧ تماماً كما يطالبون اليوم بالعودة الى حدود ١٩٤٧ ، تلك الحدود التي رفضوها في الماضي عن طريق اللجوء الى القوة » .

* * *

فاذا كانت اسرائيل تريد الرجوع الى خريطة الشرق الاوسط لتعيد تشكيلها وفق أهوائها التوسعية ، فان على القادة العرب أن يبادروا إلى اعـادة رسم الخريطة السياسية للشرق العربي بما يتفق وضرورات الوجود القومي على الأرض العربية ، وهذا الوجود لن يتحقق مادامت التجزئة السياسية قائمة . إذ

ان التجزئة ضد التصنيع والتطوير واستراتيجية الحرب ضد اسرائيل والاستعمار الأمريكي . وإذا لم يستجب القادة العرب لنداء الوجود والتقدم فان على الشعوب العربية أن ترغمهم على ذلك ، إذ بدون وحدة سيبقى المصير العربي تحت رحمة التوسع الاسرائيلي الذي أقام خمسين مستعمرة في الأراضي العربية التي احتلت بعد حزيران وأسكن فيها خمسين الف مهاجر قدموا بعد عام من الحرب .

من المؤسف أن مصير المنطقة مايزال بأيدي الدول الكبرى بعد خمسين عاماً من التعاون معها أو خوض معارك مجزأة ضدها . اما المعركة الشاملة، معركة التحرير الحقيقي، فتحتاج إلى بناء قوة عربية ذاتية ، وليس بالامكان تحقيق هذا المطلب الا بتوحيد الموارد والطاقات العربية ، وكل تأخير لا تفيد منه سوى اسرائيل والاستعمار على حساب عروبة الشرق الاوسط .

الأقليّة اليهوديّة

في الولايات المتحدة الأميركية [1]

تأليف : مصطفى عبد العزيز

على الرغم من أن الاقلية اليهودية في الولايات المتحدة تمارس نفوذاً سياسياً واقتصادياً كبيراً على الحياة العامة ، فان السيد مصطفى عبد العزيز يوضح في كتابه أن هذا النفوذ ليس مسخراً دوماً لخدمة اغراض اسرائيل والصهيونية ، فليس اليهود تلك الكتلة البشرية المتماسكة التي تبدي نفس مظاهر السلوك والتصرف حيال المشكلات السياسية المختلفة التي تطرح عليها . هذا الواقع يظهر واضحاً في وضع يهود الولايات المتحدة كأقلية ممتازة تتمتع بسمات وافضليات اجتماعية لا يتمتع بها سواها من مواطني تلك البلاد ، فهم ، برغم كونهم يشكلون ٣٪ فقط من مجموع السكان ، ينقسمون من حيث المعتقدات الدينية والسياسية إلى ثلاثة اتجاهات رئيسية :

---

(١) دراسات فلسطينية ٣٥ — منظمة التحرير الفلسطينية — مركز الابحاث — بيروت ١٩٦٨ .

أ ـ اليهود الارثوذكس .

ب ـ اليهود الاصلاحيون .

ج ـ اليهود المحافظون .

وبينما يؤمن اليهود الارثوذكس أن الديانة اليهودية هي في نفس الوقت إلزام بشعب يهودي ، إي بحركة سياسية معينة لليهود هي الصهيونية ، يعتقد الإصلاحيون والمحافظون ان الديانة اليهودية بحد ذاتها ليست شيئاً ثابتاً ، وإنما يجب إخضاعها باستمرار لمعطيات العصر الذي لايمكن تفسيرها إلا من خلاله ، كما يعتقد الاصلاحيون ان الديانة اليهودية لاتعدو كونها عقيدة تربط الإنسان بالخالق والمثل العليا ، دون ان يكون لها اي محتوى سياسي ملزم للانسان اليهودي بتأييد هذا الجانب السياسي او ذاك . واذا كان اليهود المحافظون قد اصدروا مؤخراً بياناً يعلنون فيه دعمهم للصهيونية ، فان ذلك لايعني انهم قد احرقوا الجسور التي تربطهم بالمجتمع الاميركي ، كما يفعل اليهود الارثوذكس الذي يعتبرون انفسهم مجرد « رسل » لإسرائيل في بلد الغربة ، اميركا . إن المحافظين والاصلاحيين هم من انصار الاندماج في المجتمع الاميركي ، وهذا يعني ان ارتباطهم بالدين اليهودي يتحول مع الزمن ليصبح شيئاً بارتباط المسيحي الاميركي بديانته ، اي ارتباط فردي لايلازم بحركات سياسية ذات طبيعة عامة . وقد قال بن جوريون في وصف هذا الوضع انه « أكبر خطر يهدد الصهيونية والشعب اليهودي » .

برغم ماتقدم تجب الإشارة الى ان اليهود الارثوذكس لازالوا يوجهون علاقات قسم كبير من اليهود بالمجتمع الاميركي وإسرائيل ، وهذا عائد بالدرجة الاولى الى المكانة الاقتصادية والسياسية التي يتمتعون بها ، والى حجمهم البشري

(١٫٨ مليون من أصل خمسة ملايين يهودي) والى توزعهم الجغرافي وتنوع المنظمات التي يسيطرون عليها ووسائل الاعلام الضخمة التي تعمل لخدمتهم .

وضع اليهود الخاص في المجتمع الاميركي :

قدم اليهود الى اميركا في اربع موجات من الهجرات :

أ ـ الهجرة الاولى من ١٦٥٤ حتى ١٨١٥ تضم يهوداً من كل جهات العالم.

ب ـ الهجرة الثانية من ١٨١٥–١٨٨٤ تضم يهوداً المان بصورة اساسية .

حـ ـ الهجرة الثالثة من ١٨٨٤ – ١٩١٤ تضم يهود شرق اوروبا .

د ـ الهجرة الرابعة من ١٩١٨ – ١٩٤١ تضم يهود شرق ووسط اوروبا والمانيا .

وقد ارتفع عدد اليهود بين عام ١٨٨٠ و ١٩٤٥ من ٢٥٠٫٠٠٠ الى ٥٫٠٠٠٫٠٠٠ ، تركزوا كلهم تقريباً في المدن ، وهـذا ما مكنهم من من الاندماج السريع والمجدي في دولاب الحياة الاقتصادية ، فسيطروا بسرعة على صناعة الملبوسات وعلى قطاعات هامة من الاستيراد والتصدير والتجارة الداخلية ، لينتقلوا بعد ذلك الى السيطرة على قسم كبير من وسائل الإعلام وصناعة السينما ، ثم الى التغلغل في البنوك والصناعات الثقيلة . وان تركز ٩٩٫٨٪ من اليهود في المدن يعطيهم ميزة خاصة في المجتمع الأميركي . اذ أن المدن تلعب دوراً هاماً وحيوياً في النشاط الاقتصادي والسياسي والاجتماعي والثقافي ، ووجود غالبية اليهود في هذه المـدن (يسكن اربعة من خمسة ملايين يهودي في المدن التي يزيد تعدادها على ١٠٠٫٠٠٠ نسمة) يتيح لهم الاستفادة من هذا الوضع[١] .

---

(١) الاقلية اليهودية : ص ٤٠ .

، ويتركز في مدينة نيويورك لوحدها ٤٠٪ من يهود الولايات المتحدة ويشكلون ١٤٫٦٪ من السكان ، أي ثلث سكانها البيض[١] .

ان السمات الديموغرافية للأقلية اليهودية الامريكية ، تعطيها ميزات خاصة من الناحية السياسية لأنهم يتركزون في اكثر الولايات الامريكية تأثيراً على الأوضاع السياسية ، كما تمنحهم وضعاً اقتصادياً افضل ، وتعطيهم مجالاً افضل لربط طوائف هذه الأقلية في منظمات خاصة ، مما يزيد من وزنها الاجتماعي المؤثر ، فعدم التشتت الذي يتصف به توزيع الأقلية اليهودية يقلل من اعباء التنظيم بين أفرادها ، كما انه يساعد على تكوين تكتلات يهودية في أهم الولايات الامريكية تستطيع ان تمارس ضغطاً مؤثراً عند اللزوم[٢] .

هذه السمات الديموغرافية تنعكس على حالة اليهود الاقتصادية والتعليمية والسياسية . أما حالتهم الاقتصادية فيكفي أن نقول ان اليهود « يتعادلون في نسبة ثرائهم مع أقدم العناصر وأطولها إقامة في الولايات المتحدة ، فحتى اقدم العناصر البروتستانتية التي هاجرت الى الولايات المتحدة قبل مجيء اليهود ، يشغل افرادها وظائف أدنى مستوى من وظائف اليهود . بل وصل الأمر الى حد القول أن اليهود يمثلون الطبقة البرجوازية (مهنيين ورجال اعمال) بينما يمثل الكاثوليك الطبقة العاملة (خدمات وعمالاً مهرة ونصف مهرة) ويمثل البروتستانت النمط القومي العام »[٣] . وفيما يتعلق بالمستوى التعليمي يكفي أن نذكر « أن من أثرا

---

(١) الاقلية اليهودية : ص ٤٣ .
(٢) الاقلية اليهودية : ص ٤٤ – ٤٥ .
(٣) الاقلية اليهودية : ص ٦١ .

تعليمهم العالي هم $\frac{1}{6}$ من اليهود $\frac{1}{20}$ من سواهم من السكان ، ويشكل الطلبة اليهود الذين تدربوا في المعاهد العليا ٨٪ من مجموع الطلبة الامريكيين ، رغم أن اليهود يشكلون قرابة ٣٪ فقط من اجمالي الشعب الأمريكي[١] » ، و « تبلغ نسبة المعلمين اليهود في نيويورك ٥٠٪ من مجموع المعلمين بينما نسبة اليهود الى سكان هذه المدينة ١٤٫٦٪ فقط[٢] » .

أما النفوذ السياسي فيستمده اليهود من العوامل التالية الهامة :

أ ـ نمط الانتخابات الامريكية لمجلس الشيوخ ورئاسة الجمهورية .

ب ـ المساعدات المالية الضخمة التي يقدمونها لكلا الحزبين المتنافسين ضماناً لمساعدة الفائز .

جـ ـ سيطرتهم على قسم كبير من وسائل الاعلام .

د ـ قدرتهم على نقل ولائهم من حزب لآخر حسب مقتضيات مصلحتهم .

هذا بالنسبة لوضع اليهود داخل الولايات المتحدة ، أما دورهم السياسي الذي يمارسونه في دعم اسرائيل والصهيونية ، وقدرتهم على التأثير في اتجاهات السياسة الخارجية لبلدهم والهبات والمساعدات المالية التي يقدمونها لاسرائيل ، فهي امور يحسها العرب في واقعهم اليومي من خلال مواجهتهم للحلف الصهيوني ـ الامريكي ، وهو دور يعرضه الكتاب الذين بين أيدينا بجدية وعلمية ، ويكفينا هنا ان نقول ان الزام السياسة الامريكية باسرائيل هدف اساسي لغالبية يهود الولايات المتحدة ، وليس مايقوم به هؤلاء نوعاً من الارتباط بمصالح وطنهم الأم ، امريكا ، بل باسرائيل التي يمثل يهود امريكا رئتها التي تتنفس بها اقتصادياً وسياسياً في قائدة معسكر الرأسمالية ، الولايات المتحدة . م . ك

---

(١) الاقلية اليهودية : ص ٦٨

(٢) الاقلية اليهودية : ص ٧٠

السياسة المالية

في إسرائيل [1]

تأليف : يوسف شبل

كتاب الاستاذ يوسف شبل هو دراسة علمية قيمة حول السياسة المالية الاسرائيلية كنموذج للسياسة المالية في بلد رأسمالي يقوم اقتصاده على الملكية الخاصة لوسائل الانتاج ، وهو فضلاً عن كونه تقييماً لسياسة الموازنة الاسرائيلية وأولوياتها واهتماماتها وأبوابها الثابتة والمتحركة ، يقدم بصورة واضحة الطابع السياسي العدواني لسياسة اسرائيل المالية ، ويحدد الركائز التي تستند اليها القدرات المالية للحكومة الصهيونية ، فيبحث الضرائب واساليبها ونسبها وعلاقاتها بسواها من بنود الاقتصاد المالي ، كما يدرس المساعدات الخارجية التي تتلقاها اسرائيل ، والطريقة التي تؤثر بها الكتل الاقتصادية كالسوق الاوروبية المشتركة والسوق

---

(١) دراسات فلسطينية ٣٦ – منظمة التحرير الفلسطينية – مركز الابحاث – بيروت ١٩٦٨ .

العربية المشتركة وسواها على الاوضاع الاقتصادية والمالية في فلسطين المحتلة ، موضحاً أن قدرة السلع الاسرائيلية على المنافسة تتضاءل في وجه سلع هذه البلدان وبفعل الحماية التي تفرضها على اسواقها ، كما يوضح ان هناك تحولاً بـدأ يحدث (دون ان يأخذ ابعاده حتى الآن) في سياسة اسرائيل التصديرية ، أذ ان تكوين الهيئات الاقتصادية القارية في أوروبا وغيرها يضطر اسرائيل الى الالتفات نحو افريقيا التي تعتبر الاكتشاف الاقتصادي للصناعة الاسرائيلية ». ويربط المؤلف بين هذه التحولات وبين السياسة المالية الداخلية تجـاه المؤسسات الانتاجية والتصديرية ضمن اسرائيل . ويبحث ايضـاً في سياسة القروض، سواء كانت داخلية ام خارجية ، وفي سياسة اصدار السندات على الخزينة وسندات الدفاع ، كما يتحدث عن الدين العام والتضخم النقدي .

ويحدد الكتاب ثلاثة ادوار للسياسة المالية الاسرائيلية هي :

آ — « دور انتاجي من خلال النفقات العامة .

ب — دور توزيعي من خلال نظام الضرائب .

جـ — ودور استقراري من خـلال استعمال الميزانية كوسيلة لتحقيق أهداف اقتصادية معينة كالمحافظة على ثبات الاسعار ، وتحقيق معدل عال للنمو والعمالة الكاملة »(١) .

ويقرن تحقيق هذه الاهداف بعوامل ثلاثة :

آ — استمرار تدفق المساعدات المالية الخارجية .

ب — استمرار تطوير الاقتصاد الحربي الذي يمثل عامل انفراج هام بالنسبة للاقتصاد الاسرائيلي .

---

(١) السياسة المالية في اسرائيل : ص ١٢

ج – إيجاد أسواق مفتوحة امام الصناعة الاسرائيلية التي تعمل جاهدة للتخصص على السوق العالمية كيلا يفوتها ركب تقسيم العمل الدولي .

إن السياسة المالية الاسرائيلية هي تنسيق وحدات اقتصادية ثابتة (الموارد الداخلية ، التجارة الخارجية ..الخ) مع موارد غير ثابتة وغير مضمونة أصلاً (المساعدات المالية) مع تركيز خاص على هذه الموارد غير الثابتة ، وهذا بالطبع يعكس الوضع السياسي القلق للكيان الصهيوني برمته ، هـذا الكيان الذي لم يستطع حتى الان خلق ركائز اقتصادية تستطيع ان تؤمن له كياناً خاصاً قادراً على الحياة بمفرده من جهة ، وعلى كسر طوق التخلف الذي يعاني منه الاقتصاد الاسرائيلي ، والذي يتبدى في الارتباط بالمساعدات الخارجية وغلبة الطابع الزراعي من جهة اخرى .

م . ك

تقنية القصة

في

«أحبّ الشام»(١)

نقد : أكرم شريم

في الأسواق الآن، مجموعة قصص بعنوان «أحب الشام» للسيدة ناديا خوست، تحتوي على سبع عشرة أقصوصة وقصة قصيرة، خرجت في مئة وخمسين صفحة، وفي حجم صغير عريض، قدم لها القاص سعيد حورانية، كما أخرجها ووضع رسومها، الفنان غياث الأخرس.

ولقد اعتمدت المؤلفة في عرض أفكارها، طريقة أسميها «الكشف المباشر». وهو كشف، لأنها درجت في غالبية القصص،

(١) مطبعة الجمهورية – دمشق ١٩٦٨ .

على فضح مسائل ومفارقات ، كبيرة وصغيرة ، في علاقاتنا الاجتماعية « روتين ، خداع اجتماعي ، بطالة ، تقاليد متخلفة ، وطنية زائفة ، دجل ثقافي ... » أنزلتها كمجموعة مشكلات في القصة الواحدة ، أو كزوايا مساعدة متناثرة في المجموعة ، متباعدة تارة ، ومتتابعة تارة أخرى . كما أنزلت هذا الكشف أيضاً ، على شكل احساسات داخلية تقريرية ، لدى شخصياتها القائمة ، ضعيفة الملامح النفسية ، ومعدومة الملامح الجسدية تقريباً .

وهو من الزاوية نفسها ، كشف « مباشر » ، لأنه غير ايحائي . كما أنه في معظم الأحيان غير تنويري ، باستثناء لحظات التنوير باردة الوقع في نهايات « أحب الشام ، في الصالة ، غريبة ، في القطار ، حب شرقي » ، وباستثناء بعض البدايات التنويرية في « أحب الشام ، ما في كيف ، بعد الايام الستة ، يوم السبت » إذ تأتي البداية هنا ، جملة مختصرة مكثفة ، لتضيء دخولاً عريض المعاني والاحساسات .

أما غير ذلك ، فالكشف عندها يعوزه العمق . . تعوزه إثارة التفكير المتعمق لدى القارىء ، ليتعرف الى ما هو أبعد من الخطأ - الوسيلة ،ليتعرف الىالاساس الواقعي الذي أنتج الخطأ الاجتماعي .. الى طبيعة هذا« الواقع - الخطأ » الذي كان مقدمة وسبباً. ويتأتى ذلك العمق عادة ، بوساطة التحليل .. التحليل لموقف بعينه ، أو لحالة ، أو لشخصية ، أو لحركة نفسية واحدة ؛ هذا العنصر الذي يكاد يكون مفتقداً في المجموعة . وقد لا يكون افتقاده ضعفاً ، قدر ما يكون ميزة من ميزات القاصة في عملها . فالقصة عندها ، تركيبية ، وليست تحليلية .

وحتى في قصة « أحب الشام » التي قد تبدو في حل من هذا الحكم ، فقد جاء الكشف فيها ، وهو ليس كشفاً عن خطأ ، أو عن علاقة زيف ، بل عن علاقة حب، يتوالد من خلالها ارتباط وطني انفعالي ؛ حتى هذه القصة ، جاء الكشف فيها مباشراً ، لان الاحساسات فيها مباشرة ، وليست ايحائية ، ومواقفها تركيبية وليست تحليلية .

والغوص الى أساس الحدث ، للبحث عن الابعاد الموضوعية له ، والايحاء بها ، من خلال رؤية فكرية معينة ، هو عملية « فكرية » في الادب . وهذا الغوص يحتاج اكثر من غيره ، الى براعة فنية خاصة ، والى نضوج في التجربة . من هنا نحكم على قصص المجموعة كاملة ، بأنها تفتقد البعد الفكري ، وليس كما تصور بعضنا من أنها غنية بهذا البعد . فناديا في مجموعتها ، تحاول كشف الزيف الاجتماعي ، لكنه فنياً ، جاء كشفاً بدون عمق وبدون توسع ، عن طريق الإيحاء الذي هو، بفهم أو بآخر ، جوهر الأدب . فهي

اكتفت بنقل المظاهر البسيطة : خداع . . زيف . . دجل . . ظلم . هذا النقل التقليدي والمستهلك في الادب . وفضلاً عن أن ذلك عدم نضج في العمل القصصي ، فقد جاء في عبارات مباشرة وسريعة ومنفعلة « بذاتها » . وانفعال العبارات بذاتها ، فضح كثيراً من سطحيتها ، بحيث بدت القاصة صاحبة عواطف « غيرية » ، جعلتها تتحمس لتكشف وتفضح ، وليست صاحبة عمق فكري .. بعد فكري في رؤاها الذاتية لوجوه الواقع .

ولا أطلب هنا ، أن تفرض القاصة عواطف وانفعالات شخصياتها على القارىء ، ثم تفتعل حلاً أو نتيجة اجتماعية ، لا .. إنما أقصد أن « التركيب » لديها ، جعل أشياء قصصها ، تبدو وكأنها منقولة من خـــلال عدسة فوتوغرافية . وليس ثمة ما يبرر هذه الطريقـــة القصصية ، اذا ما لاحظنا حاجة قصصها هي بالذات ، الى التحليل الهادىء المركز .

على أن مطالبة السيدة خوست بالبعد الفكري ، فيما يبدو ، فيها كثير من الظلم . إذ أن هذا البعد قليل في الاصل ، ونادر الوجود أحياناً ، في كثـــير من انتاج ادبائنا وشعرائنا ، على الصعيد العربي عامة . لكن هذا الانتاج ، وإن ندر فيه البعد الفكري في الرؤى الذاتية لمشكلات الواقع ، الا أنه ذو حظ كبير من النجاح ، في التعميق عن طريق الايحاء والتحليل ، الامر المفتقد بدوره ، في مجموعة ناديا .

ويجدر التنويه هنا ، وللانصاف ، بأن مجرد هذا التعاطف « الغيري » في المجموعة ، والذي لم ينضج فيصل الى مستوى الرؤية الفكرية ، يعتبر وحـــده بقيمة نقلة بأدب « المرأة العربية » ، الى مشكلات الواقع الراهن ، العامة ، بكل ثقلها ، بعيداً عن الاحساسات النسائية الذاتية الغالبة في أدب المرأة الدارج . خاصة وأن ذلك لم يقتصر على قصة أو اثنتين .. بل شمل جميع قصص المجموعة . وهذه أول نقطة لصالح القاصة !

* * *

الحوار الضمني وسيلة جديدة

وقصة ناديا عموماً لاتقوم على الحدث . فأفكارها ليست منساقة في اطار الحدث . وهي في الوقت نفسه ، لاتطرح شخصية مركزة : فلا شخصية رئيسية مركزة فيها ، ولا شخصية جانبية مركزة . ولعل القاصة لم تقصد ، وهذا للانصاف أيضاً ، أن تضم القصة في وحدة موضوعية تؤطرها شخصية ، أو يؤطرها حدث ، كما هو دارج في

الأكثر. وإنما جاءت وحدتها الموضوعية، من خلال « الأفكار المتتابعة » نفسها .. أي بوساطة الكشف المباشر التركيبي للأحاسيس والمفارقات الاجتماعية، المزدحمة في رأسها دائماً!

أما وسيلتها لهذا، فكانت: الحوار الشخصي الضمني المتتابع « ومن هنا يخرج المنولوج » الذي ساقت بوساطته كل أشياء قصصها، وركبت منه أجساماً متكاملة لكثير من قصص المجموعة. وأكثر مايميز هذا الحوار الضمني المتتابع - الذي جاء عندها بمثابة السرد عند القاص السارد - إيجاز التعبير مع الاسراع فيه. وهو إيجاز من حيث العبارة الواحدة، لكن المعنى العام لم يكن موجزاً، فضلاً عن تكرار أحاسيس عديدة.

ويميز هذا الحوار أيضاً، بساطة الفكرة، لدرجة المستوى العادي، والمجاني أحياناً، إضافة إلى اشراق العاطفة ووضوحها. ولم تستطع القاصة التاسك في هذا، فجعلتها بساطة الأفكار، مع سلاسة التعبير، مع العاطفة الواضحة، تنزلق في كثير من المواضيع، إلى هوى التركيب المباشر.

وبوساطة هذا الحوار، استطاعت ناديا في بعض قصصها، أن ترصد عواطف وانفعالات ومفارقات وعدة أحداث في القصة الواحدة. وخير مثال هنا «مافي كيف» ولكن دون أن توفق دائماً، في هذا النوع من القصص المزدحمة بالأشياء، في أن تربط هذه الأغراض « كلها » في جسم قصة فنية، حسب مايقتضيه قانون الضرورة، الذي يستدعي الا نضع في القصة، أو في أي عمل أدبي أوفني، إلا مايؤدي الغرض. وعلى الرغم من أن أجزاء كثيرة يمكن الاستغناء عنها في قصصها عامة، لأنها بدون غرض، فإن ثمة أجزاء أخرى، لم تأت لتؤدي غرضاً ضرورياً! من هنا يمكن القول، إن وحدة الموضوع « الضرورية »، غالباً ما كانت تأتي في المجموعة، من خلال إطار نفسي لدى القاصة وحدها، وخير مثال على ذلك « أمومة يوم الجمعة ».

غير أن المؤلفة، استطاعت أن تجيد ملاحقة التوتر الخفي الذي أغنَاها، فعلاً، عن الاطار - الحدث، وعن الاطار - الشخصية، وذلك في « أحب الشام، رأس السنة، غربة، حب شرقي .. الخ »، بحيث استطاعت أن تجعل هذا الحوار الشخصي، الضمني، المتتابع، يشكل لدى القارىء، بعد الانتهاء من القراءة، أطاراً نفسياً، يحل على الوحدة الموضوعية « المادية » التقليدية.

وإن تكن السيدة خوست ، لم تتمكن في مجموعتها الأولى ، حتى الآن ، من أن تتجاوز ، أوتصل إلى مستوى القصاصين العرب الكبار ، من حيث قيمة المضامين ، وجدتها ، ومن حيث براعة التحليل ونضج الايحاء ، الا انها قد حاولت أن تتجاوز « فنياً » كل من سبقها .

وليس غريباً ، وليس جديداً أصلاً ، أن يحاول أحد التجاوز في هذا ، فالبحث عن الأشكال الجديدة لقصة اليوم قصة الغد ، ومعه البحث عن أشكال تعبيرية جديدة أيضاً ، أصبح أمراً ملحوظاً في المحاولات الأخيرة التي تطلع علينا ، لسنوات مضت ، وباستمرار ، في المجلات والصحف . لكن مايميز السيدة خوست فنياً ، عن مثل هذه المحاولات ، ويجعلها ، في رأيي تبتدىء في أن تنفرد بشخصية مستقلة في تجاربنا القصصية العربية ، هو أنها جعلت الحوار الشخصي الضمني طريقة لكشف مباشر تركيبي يشكل قصة جديدة .. يشكل غالبية القصص في مجموعة .

هذه إذن ميزة ثانية لصالح القاصة !

ولعل من الضروري هنا ، أن أذكر ميزة ثالثة ، تقف مع السابقتين ، لتجعل مجموعة ناديا ، في رأيي ، تستحق أن تسترعي منا انتباهاً خاصاً نحوها ، على الرغم مما فيها من العيوب القصصية ، البدهية ، واللغوية أحياناً ، والتي سأعرض لها فيما بعد ..

أقول لعل من الضروري أن أذكر ، أن في المجموعة جرأة جديدة علينا .. إنها جرأة ايجابية ، في المواضيع عامة . وهي جرأة غير رخيصة ، أوسوقية ، أو تجارية ، كما في بعض الأدب ، ومنه كثير من أدب نسائنا العربيات . وهي من جهة ثانية ، جرأة غير سطحية ، أوبحانية ، كما في غضب الشباب أحياناً . ولكنها من جهة ثالثة ، ليست جرأة المبتدي ، كما سماها سعيد حورانية في تقديمه للمجموعة . فجرأة المبتدي ناضجة من حيث أنها مبررة بعمق وبعد فكريين ، من خلال رؤية فكرية مترامية الضفاف ، ولكن متماسكة وواحدة الجوهر ، وذلك مايساعدنا عادة ، على تمييزها عن غيرها . أما الجرأة الكاشفة فحسب .. العارضة للمشاكل والمفارقات في حماس غيري ، فهي جرأة معتادة وتقليدية ، وغير منتجة ، وغير مبدعة .. ولكن إذا كانت الجرأة الكاشفة ، ليست جديدة علينا ، فجرأة ناديا في مجموعتها عامة تكاد تشمل جميع القصص ، ثم هي نوع من الصراحة المؤثرة لدرجة الغيظ الذي يحمّل القارىء مسؤولية . وهي أيضاً ، جرأة ذات طابع سياسي على ندرته فيها .

وعلى أية حال، فان الطابع السياسي، في أدبنا العربي الحديث، نادر عموماً، ويكاد يكون معدوماً في أدب المرأة العربية.

عثرات في التهيئة وفي الانتقال

وإلى ماتقدم. فالسيدة خوست، كثيراً ما كانت تبتدىء بسرد الحوار الضمني في مواضع تحتاج حاجة قصوى إلى التهيئة، دون تهيئة، فمثلاً، أن الأم في « أمومة »، وهذا خير مثال على القصة – الحوار الضمني، كانت كأنما في وقفة اعتراف، دون أن يحتوي ماتقوله، إطار من حدث، ودون مناسبة تهيء لهذا الحوار الضمني الطويل الذي شكل القصة كلها. لذا فان مشكلة هذه الأم، هي إطار نفسي عند ناديا وحدها، وليس في القصة: ومشكلة الأم هذه، لم تشفع لتجسيدها، كجسم قصة، أية حركة خارجية، ولا أي تطور داخلي. فلو كانت التهيئة وحدها هنا، متقنة عند الدخول في القصة، لأغنت عن كل شيء، ولجاء جسم القصة المنسوج من الحوار الضمني مضموماً كله، بوساطة منطقة الاثارة الذهنية الأولى.. التهيئة. فناديا هنا قد رفضت الأطر التقليدية، ولم تلاحق التوتر الفني، في خط يأتي منسجم مع اللحظة والحالة، ولم تهيء، وأغلب الظن أنها لم تنتبه إلى أهمية التهيئة في مثل هذه المواضع. وربما كان الهدوء الذي يحتاجه الاسلوب، ومعه اعتقاد التأني الموضوعي التحليلي، هو الذي أوقع القاصة في الانزلاق، في هذا السرد الحواري الضمني، الذي جعل بعض قصصها، تقترب من شكل الخاطرة الأدبية.

والمباشرة مقنعة ومقبولة، اذا جاءت مغطاة.. مموهة بين أشياء القصة. وهي كذلك، اذا جاءت في الحوار العادي وفي المنولوج،لكنها في هذا الحوار الضمني المتتابع، أكثر خطراً؛ وأول خطرها، أنها تقرب بعض التعابير، من شكل التعابير التوجيهية في المقالة الانشائية. ومن جهة ثانية فان ناديا حين هيأت، واتقنت التهيئة – وقد فعلت ذلك في قصتي « ما في كيف » و « بعد الايام الستة » – فقد أخطأت حين الانتقال؛ إذ ابتدأت القصة الاولى بعبارة «اليوم أتوظف» ثم انتقلت على بداية السطر الثاني لتسرد وقائع غير منفعلة نفسياً مع موقف الشخصية في مثل هذه اللحظة « الهامة »، وحيال مثل هذا الحادث « التنويري » المؤثر الذي هيأت به في القارىء، توقعات كثيرة، ترافقها احساسات كثيرة متصلة بعبارة « اليوم أتوظف ». والامر نفسه حدث في القصة الثانية، حين ابتدأتها بعبارة « دوي بعيد » ثم انتقلت على بداية السطر الثاني،

لتسرد ببرود ، حواراً ضمنياً غير منفعل مع الموقف – الحالة ، لان افتعاله واضح الاساءة في الخلل الذي يحدثه ، في السياق الذهني لدى القارىء .

والانتقال بشكل عام ، كان يوجد عثرات في التسلسل العاطفي المثار تباعــاً مع كلمات القصة : انه انتقال غير متقن « موضوعياً » بالنسبة لتسلسل موضوع القصة ، و « لغوياً » بالنسبة لسبك العبارات وانضباطها في صف متين مفيد . والانتقال غير الفني ، لم يكن مقتصراً على الفقرات وحدها ، انما كان في صلة العبارات بعضها ببعض أيضاً ، والقارىء يلاحظ ذلك بسهولة حين مطالعة المجموعة .

والى جانب ذلك ، فالحوار الضمني هذا كانت تنساق خلاله ، وقعات مفتعلة وغير مقنعة ، وبالتالي غير مؤثرة ، وغير ضرورية !.. مثل « وها أنا أفتتح النهار في الوظيفة ، بقدح شاي ، واقلب السجل الكبير ، فاصادف ورقة بين طياته ، واقرأ فيها خطأ آخر : مستعجل جداً . واقرأ تاريخ الورقة : ١٩٤٧ .. واتريث برهة ، ثم اعيدها الى مكانها ، واطوي الدفتر » هذا في قصة « جار المعصرة » عنــدما ارادت القاصة أن توحي لنا بروتين المعاملات . وحدث ذلك كثيراً عندها ، وخاصة حين جمعت أكثر من مصادفة لشخصية « مافي كيف » لتقنعنا بوجود الزيف ، والمصادفات كلها في سياق زمني واحد متتابع ، مع ان هناك أكثر من شكل للقول القصصي ، تستطيع بوساطته القاصة ان توصل الينا ماتريد ، دون هــذا التكلف ، الوارد في المثالين ، وفي كثير من المواضع في مجموعتها .

ذلك كله ، في رأيي ، من اخطاء هذه الشكل الفني « المحاولة » غير الناضج كبداية ، والذي يحتاج الى تخطيط ودرس ، كي لاتفشله كثرة مزالقه . فمن مزالقه عند ناديا صاحبته ذلك الاسهاب فيه ، الذي اوقعها في تقرير فجّ . وهو كثير عندها ، مثل « قالت لي امي لاتطلعي من البيت ! لماذا تحب ان اطيعها بدون نقاش ؟.. لتشعر أني احبها ، لتشعرني انها امي ؟ ياليت اليوم ليس يوم جمعة . » ، هــذا في قصة « مطر نيسان » . فاللمسة الفنية تحتفظ بنقائها ، حين تتوقف القاصة في هذا المعنى ، عند كلمة « نقاش » .

والعامية لذاتها !

أما أمر العامية ، فيستحق أن نقف عنده بروية . فلقد أرادت القاصة أن « تطعّم » محاولاتها هــذه ، بالعامية الدارجة . فماذا فعلت ؟ . كانت تمزج العامية بالفصحى دون وضعها بين أقواس ، كأن تكون في حوار عادي له دلالة بيئوية أو نحو

ذلك . وفي مواضع اخرى ، كانت تضع اللفظات ، والعبارات العامية ، ضمن قواس ، فصلاً لها عن الفصيح . والعامية عندها ، في كل المواضع ، ليست مبسطة ، أو مصفحة كما نعهد ، وكما نريد ، وانما هي عامية دارجة محلياً .. محلية جداً .. شامية !.. وقد أتت دون غرض تخدمه ، سوى انها لذاتها !

وفي الحقيقة ، لا الشكل الفني عند ناديا يحتاج الى هـــذا المزج العشوائي ، وغير المبرر ، بالعامية ، ولا الموضوعات وطبيعتها ، تحتاج ذلك .

وفي هذا أقول ، إن استخدام العامية عند ناديا ، وفي كل المواضع ، كان عشوائياً ، ولا يفسر الا تذمرها من كل شيء ، وعصبيتها ، والفوضوية في نظام الاشياء في قصصها. وأشير هنا الى هذه الركاكة الكثيرة في لغتهـــا ، والتي تجعلنا نعتقد بسهولة ، بأن السيدة خوست ، ذات لغة ضعيفة !

خلاصة أخيرة :

والشكل الفني في « احب الشام » ، إذا خدم المضمون في بعض القصص ، فانه جعل بعضها الاخر ، يمتلىء بالعيوب . فلم تستطع ناديا ، اضافة الى ما تقدم من عيوب في مجموعتها الاولى ، ان تجعل حوارها القصصي ، يخدم كل الموضوعات،فالموضوع هو الذي يفرض الشكل . ولا يمكن لشكل فني واحد ،أن يكون لبوساً لكل الافكار القصصية. وهذا كله ، يوضح مدى ثقل واتساع المسؤولية الادبية ، امام ناديا ، لتثبت ان لها شكلها المتميز المرن . ومن جهة ثانية ، لتثبت انهـا تجاوزت الاديبات العربيات ، ليس فقط ، في طرح المشكلات ، وانما في تعميقها بوساطة بعد فكري مميز ، عسى ان تتجاوز في شيء ، المدرسة الطبيعية الغالبة في ادبنا العربي الحديث .

واخيراً ، فان مجموعة «أحب الشام» ، وكما بينت ، قد جاءت من الناحية التقنية ، اضافة فنية ، للتجارب القصصية التي عرفها هذا البلد ، فتميز بها ، في هذا الفن الكتابي من الأدب .

حول
مؤتمر الطلبة الاشتراكيين في ألمانيا الاتحادية

بسام الطيبي - فرانكفورت

اخذ المؤتمر السنوي لعصبة الطلبة الاشتراكين الالمان في المانيا الغربية اهمية خاصة هذا العام، وذلك بعد ان ازدادت قوة واهمية هذه العصبة بعد احداث عيد الفصح المنصرم في ابريل (نيسان) من العام الجاري ، حين جرت محاولة لاغتيال منظّر ومنظم العصبة في برلين الغربية رودي دوتشكه Rudi Dutschke والتي تبعتهـــا الانتفاضة الطلابية حين احرق الطلبة الاشتراكيون مباني الرأسمالي الالمـــاني شبرنغر Springer الذي يسيطر على الاجهزة الاعلامية في المانيا الغربية ، وحــين جرت حوادث دموية ومعارك حادة مع البوليس ، لم تعرف لها المانيا الغربية منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية مثيلا .

ومما يجدر تسجيله هنا هو ان عصبة الطلبة الاشتراكيين الالمان S.D.S. (١) كانت المنظمة السياسية الوحيدة التي ابدت العرب لدى العـــدوان الاسرائيلي في يونيو ١٩٦٧ ، فعقدت في الفصل (السيمستر) الشتوي لعام ١٩٦٧/ ١٩٦٨ ندوة في جامعة فرانكفورت ، قدمت خلالهـــا محاضرات علمية حول الخلفية الاقتصادية – الاجتماعية والتاريخية للنزاع العربي الاسرائيلي ، واظهرت من خلالها ان اسرائيل ليست سوى مخفر امبريالي في الشرق الاوسط ، ومن المخزي حقاً هو ان الطلبة العرب في فرانكفورت الذين يبلـغ عددهم ١٥٠ طالب تقريباً لم يشاركوا في الندوة ، بسبب الكسل فقط ، وليس لاي سبب آخر ، فلم يحضر الندوة سوى ثلاثة طلبة عرب ، حيث شاركوا في النقاش ايضاً .

وقد ابتدأ المؤتمر السنوي لهذا العام في ١٢ سبتمبر الجاري وحتى السادس عشر منه ، وحضره ممثلون لجميع فروع العصبة في المانيا الغربية ، هذا الى جانب عدد من الوفود الطلابية من فرنسا والولايات المتحدة وايطاليا وبريطانيا الى جانب وفود من طلبة العالم الثالث في المانيا الغربية وفرنسا .

ومن المخجل حقاً ، ومرة ثانية ، ان الطلبة العرب في فرانكفورت لم يشاركوا في اعمال المؤتمر ولم يعملوا لقضيتهم ، فقد استطاعت الوفود المختلفة ان تفرض نفسها على المؤتمر لتعالج قضاياها ، فمثلاً استطاع وفد طلبة السنغال ، الذي قدم خصيصاً من فرنسا للمشاركة في المؤتمر ، استطاع ادراج قضية بلاده .

---

(١) حروف .S.D.S هي اختصار للاسم الكامل للمنظمة :

Sozialistischer Deutscher Studentenbund

اي : عصبة الطلبة الاشتراكيين الالمان

ولو شارك الطلبة العرب في المؤتمر لاستطاعوا إدراج قضية فلسطين بكل سهولة ، وخاصة أن الحاضرين يتعاطفون مع مواقف التقدميين العرب ، ولكن الطلبة العرب ليس في فرانكفورت وحسب، وإنما في ألمانيا الغربية بكاملها مصابون بمرض اللامشاركة Apathy . وقد أظهرت في بحثي عن الطلبة في ألمانيا الغربية مدى رداءة نوعية هؤلاء الطلبة [1] ، بينما نجد أن الطلبة العرب في الولايات المتحدة، وفرنسا نشيطون جداً، يعملون لقضية الثورة العربية والتحرر من الامبريالية باستمرار.

ولكن معظم الطلبة العرب لم يعرفوا حتى وجود المؤتمر ، رغم انعقاده داخل الجامعة ، ولم يأت سوى ثلاثة طلبة عرب بالتحديد ، ولا يمكن أن يتحدث هؤلاء ، بوصفهم أفراداً أتوا ممثلين رسميين . وإذا بحثت عن الطلبة العرب أثناء المؤتمر لوجدتهم في بعض المقاهي المعينة في وسط المدينة ، أو في احدى زوايا مطعم الجامعة ، أو في منزل أحدهم يشربون الشاي ويثرثرون عن رداءة الطقس والطعام الألماني ، أو عن مغامراتهم في احدى المراقص أو ما شابه ذلك من الأشياء التافهة .

وأعود إلى المؤتمر السنوي لعصبة الطلبة الاشتراكيين الألمان ، الذي حضرته وفود أجنبية مختلفة ، وحيث عولجت فيه قضايا عديدة . ومن القضايا التي احتلت أهمية خاصة قضية الثورة الطلابية في مايو المنصرم في فرنسا ، حيث أثار المناقشة الطلبة الفرنسيون الحاضرون . ومما لفت النظر اختلاف الآراء باختلاف تبعية المناقشين للفئات المختلفة . فهؤلاء الطلبة كلهم اشتراكيون وينطلقون من الماركسية – اللينينية ولكنهم تابعون لاتجاهات نظرية مختلفة : فهناك

---

(١) انظر : بسام طيبي: مشكلات الطلبة العرب في ألمانيا الغربية : مجلة «الآداب» السنة السادسة عشرة – العدد الثامن – أغسطس ١٩٦٨، صفحة ٧٤–٧٧ .

التروتسكيون ، والشيوعيون التقليديون ، وأنصار الاتجاه الصيني المعروف بالماوية Maoism ، وكذلك الفوضويون Anarchists ، وأتباع الاتجاه الكاسترو يـ غيفاري .

وعقد المؤتمر في أحد مباني الجامعة التي أطلق عليه الطلبة اسم منزل تشي غيفارا ، وذلك بعد الانتفاضة الطلابية في الفترة المنصرمة . وآنذاك غير الطلبة اسم الشارع الذي يقع به البناء المسمى حالياً منزل تشي غيفارا ، وذلك من شارع ميرتون Merton الى شارع هوشي منه .

وكانت المناقشات بين أتباع الاتجاهات النظرية تأخذ أحياناً شكلاً حاداً جداً ، بماجعل المناقشة تتحول أحياناً من مناقشة علمية الى مناقشة اشكالية ، وكان أتباع الاتجاهات المختلفة يبيعون الكتب النظرية المساندة لاتجاهم على طاولات عديدة في الصالة الواقعة في مدخل القاعة التي عقد بها المؤتمر ، فتكدست كتب ماوتسي تونغ ، لينين ، غيفارا ، تروتسكي الخ ... و كذلك صور كبيرة لماركس ولينين ولمعظم المنظرين الثوريين الآخرين .

ومن القرارات التي اتخذها المؤتمر قرار احتلال المحاكم التي ستحاكم الطلبة الاشتراكيين الذين اشتركوا في الانتفاضة الطلابية في عيد الفصح المنصرم ، كذلك قرر اتخاذ بعض الاجراءات للتحضير من أجل تمرد من قبل الجنود الصغيري السن داخل الجيش الألماني الغربي بوصف هذا الجيش ، كما قال اعضاء العصبة ، جيشاً امبريالياً رجعياً .

ومن القضايا الهامة التي نوقشت ، قضية تحرر المرأة ، حيث اتهمت الطالبات المشتركات في المؤتمر الطلبة بأنهم رغم تقدميتهم السياسية رجعيون في مواقفهم

تجاه المرأة[1]، فهم يؤيدون قضية تحرر المرأة نظرياً فقط، وباسلوب شكلي، بينما تصرفاتهم تجاه الطالبات الاشتراكيات رجعية. وقد قررت الطالبات الاعضاء في الـ S.D.S. في برلين الغربية الانفصال عن المنظمة وتأسيس منظمة نسائية اشتراكية، تقبل الطلبة الشباب في صفوفها عندما يبرهنون على انهم يتصرفون تصرفات تقدمية تجاه المرأة. وقد قامت الطالبة هلكيه ساندر Helke Sander ممثلة الطالبات الثوريات المتمردات بتلاوة بيان هؤلاء الطالبات، الذي نسخ ووزع على الحاضرين وسوف استشهد ببعض فقرات هذا البيان الذي يبلغ خمس صفحات مطبوعة على الآلة الكاتبة.[2]

يقول البيان «ايتها الرفيقات، ايها الرفاق .... ان التعاون بيننا يجب ان يقوم على اساس تفهم المنظمة للمشكلة الخاصة للمرأة، وهذا معناه بالتحديد البدء في نقاش النزاعات التي هرب من مناقشتها لمدة سنوات طويلة .... واننا سنحاول ان نوضح مواقفنا، ونحن نطالب بأن تناقش مشكلاتنا هنا بمحتواها. ولن نكتفي بعد الآن بـأن يسمع لنا، نحن النساء، بأن نلقي ايضاً كلمة، يسمعها الآخرون .... ثم لا يلبثون ان يتجاهلوها لينتقلوا الى نقطة اخرى في البرنامج»[3] ثم يقول البيان بعد شرح لمشاكل المرأة في التنظيم الاشتراكي ان النساء قد حصلن على التجربة التي جعلتهن يدركن بأنهن لن يتحررن عن طريق المنافسة .... فهن ادركن ان التحرر يقع ايضاً في اسلوب التحرر الذي

(١) للتقدميين العرب مواقف مماثلة تجاه المرأة وتحررها، ولقد قمت بدراسة حول هذا الموضوع تحت عنوان «مسألة تحرر المرأة في المجتمع العربي الحديث» وستنشر هذه الدراسة قريباً.

(٢) Helke Sander : Aktionsrat zue Befteiung der Frauen ; Manuscript.

(٣) Helke Sander, op. cit :, P 1

ينشدن [1]. وفي فقرة في البيان تعلن الطالبات المنفصلات « وبما ان الجهود التي قمنا نحن بها داخل عصبة الطلبة الاشتراكيين الألمان ، من اجل حل مشاكلنا داخل العصبة ، بما ان هذه الجهود قد فشلت ، فقد قررنا الانفصال لنعمل لوحدنا ، وكان الجزء هو رد فعل الرفاق ، اما اليوم فهم يلوموننا بشدة على ذلك ، ويحاولون البرهنة على ابتناء على خط نظري خاطىء » [2] وبعد ان يبرز البيان بالتفصيل حقول النشاط السياسية للطالبات المنفصلات المتمردات ، يناشد البيان الطلبة التقدميين مرة اخرى مناقشة مسألة المرأة ، وينتهي البيان بعبارات التهديد « ايها الرفاق اذا لم تكونوا مستعدين لهذه المناقشة .... فيجب علينا ان نؤكد ان عصبة الطلبة الاشتراكيين الألمان ليست سوى مستنقع منفوخ للثورة المضادة ، وستعرف الرفيقات اتخاذ الاجراءات الحاسمة اذن » [3] وقد حصلت مناقشات حادة حول البيان ، وبلغت حدة المناقشات درجة جعلت بعض الطالبات يرشقن أحد المعارضين للبيان – وهو الزعيم الطلابي كرال H.J. Krahl – بالبندورة (الطماطم) العفنة لدى تحدثه حول الموضوع خلف الميكروفون . وسجلت الحادثة عدسات السينما والتلفزيون الحاضرة .

وعلى أية حال فان المؤتمر قد كان خطوة في تطور الحركة الطلابية اليسارية الماركسية في أوروبا ، هذه الحركة المناهضة للرأسمالية والامبريالية ، والمتعاطفة مع جميع حركات التحرر في العالم ، وخاصة العالم الثالث .

وفي النهاية لا بد لي من تكرير أسفي لانعزال الطلبة العرب في الخارج ،

---

(١) Ibid P. 2

(٢) Ibid. P. 3

(٣) Ibid. p. 5

والعدم وعيهم السياسي الكافي ، مما يجلب الضرر للثورة العربية ، فالصهيونية نشيطة في كل مكان بينما يغط الطلبة العرب في كسلهم ، وباستطاعة الطلبة العرب ، لو انفتحوا على حركة الشباب التقدمية (١) في العالم ، وخاصة أوروبا ، أن يكسبوا اصدقاء كثيرين للقضية الثورية العربية .

---

(١) للاطلاع على حركة الشباب في العالم انظر العدد الخاص لمجلة «الطليعة» القاهرية حول هذه الحركة وهو عدد ٨ السنة الرابعة – اغسطس ١٩٦٨ . انظر ايضاً : عبد الجليل حسن : ثورة الشباب في العالم ، في : « الكاتب » – العدد ٨٨ – السنة الثامنة – يوليو ١٩٦٨ – صفحة ٤٠ – ٥٦ . انظر ايضاً لويجي لونغو : حركة الطلبة في الصراع المعادي للرأسمالية في نفس العدد المذكور لمجلة « الكاتب » صفحة ١٠٨ – ١١٥ . ايضاً : نبيل زكي : صراع الاجيال في فرنسا – نفس العدد لمجلة « الكاتب » صفحة ٥٧ – ٦٤ .

اعلنت وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية عن مسابقة لوضع الأناشيد التالية : نشيد مدرسي ، نشيد للعمال ، نشيد للمرأة ، نشيد قومي ، نشيد للشباب ، نشيد للمقاومة الشعبية ، نشيد للفلاحين.. تستمد موضوعاتها من أهداف الأمة العربية في الوحدة والحرية والاشتراكية ، ويكون كل نشيد باللغة العربية الفصحى .

وبعد أن درست لجنة خاصة القصائد المتسابقة فاز الشاعر منذر لطفي بالجائزة الأولى لنشيد الشباب ونشيد الفلاحين ، والشاعر حامد حسن بالجائزة الاولى لنشيد المقاومة الشعبية ، والشاعر جميل حسن بالجائزة الثانية .

وفتحت الوزارة مرة ثانية باب المسابقة لوضع نشيد مدرسي ونشيد للعمال ونشيد للمرأة ونشيد قومي . وتقدم الاناشيد الى الوزارة (شارع الروضة — دمشق) في موعد أقصاه يوم ١٠ / ١٢ / ١٩٦٨ .

نشيد الشباب

للشاعر منذر لطفي

« فاز بالجائزة الأولى »

نحن جيل الوحدة الكبرى وأحفاد الجدود
قد عقدنا العزم أن نحيا كراماً كالأسود

* * *

نحن للأمجاد .. للعلياء .. تاريخ حسن
كلنا يوم تدق الحرب يذوي بالمحن
همنا أن نرخص الروح لتخليد الوطن
نحن من شعب أبيّ بطل
نحن في الظلماء نجم الأمل
نحن رمز النصر - تاريخ الخلود
قد عقدنا العزم أن نحيا كراماً كالأسود

* * *

نحن جيل الوحدة الكبرى وأحفاد الجدود
قد عقدنا العزم أن نحيا كراماً كالأسود

* * *

هـذه الدنيـا ملأناهـا زئيراً ودخـان
هـذه الأرض بنيناها .. فخبّر يازمان
يافلسطين اشهدي انا سنغتال الهوان

دربنا وحـدة جيل ثائر
واشتراكية شعب ظافر
دربنا حرية دون قيود

قد عقدنا العزم أن نحيا كراماً كالأسود

* * *

نحن جيل الوحدة الكبرى وأحفاد الجدود
قد عقدنا العزم أن نحيا كراماً كالأسود

نشيد المقاومة الشعبية

للشاعر حامد حسن

« فاز بالجائزة الأولى »

النار النار ولا تجـــزع   ويداك يداك على المدفع
النار ... وهذا موسمها   فجّرها،واحصدهاوازرع
سعّرهـا جائعة ظمأى   لا تروي النار ، ولاتشبع

* * *

الخصم تنزّى مسعوراً   ندعوه ... ولكن لايسمع
يجتاح الأرض ، ولا يخشى   ويبيع القدس ، ولا يقنع
الحق لديهم لا يكفي   والصبر عليهم لاينفـــع

* * *

وطني ! واليك اليك دمي   لا أمسك عنك ، ولا أمنع
وطني .. وسأدفع عن وطني   بيدي ، بفمي ، بدمي أدفع
ما أشهى الموت ، وما أحلى ليصـــان العرض ، وما أروع

* * *

كن هدرة بركان طـاغ   كن هزّة اعصار زعزع
كن عاصفة ، كن زلزالا   كن صاعقة ، كنها أجمع
كن شيئاً ترهبه الدنيا   وتخاف الشمس ، فلا تطلع

للشاعر منذر لطفي

« فاز بالجائزة الأولى »

أيها الفلاح ياابن السهل ياابن الجبل
عشت للأرض التي تهواك منذ الأزل

* * *

عندنا في القرية الخضراء .. في كل الحقول
ألف ظل لك ياخدن البراري والسهول
أنت منا الساعد المفتول .. والوجه الأصيل
أنت من هذا التراب الأسمر
أنت من سحر الرياض الأخضر
أنت رمز الخير .. رمز الأمل
عشت للأرض التي تهواك منذ الأزل

* * *

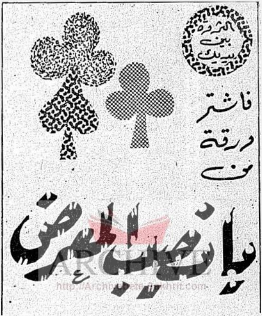
أيها الفلاح ياابن السهل ياابن الجبل
عشت للأرض التي تهواك منذ الأزل

* * *

هذه الأشرطة الخضراء من صنع يديك
هذه الغلات راحت كلها ترنو اليك
ألف مرحى لك .. للصبر الذي في أضغريك
أنت ياابن الشمس ياابن المطر
أنت يا عرس ليالي القمر
أنت نبراس الجهاد الأول
عشت للأرض التي تهواك منذ الأزل

* * *

أيها الفلاح ياابن السهل ياابن الجبل
عشت للأرض التي تهواك منذ الأزل





السيد عبد الكريم العبيد

الملقب «بأبو فلاحه»

صاحب مطعم فلافل العمال - شارع العام في دير الزور

رابح نصف الجائزة الكبرى

وقدرها ٢٥٠٠٠ ل.س

للاصدار الشعبي السادس والعشرون

يجري سحب الاصدار العادي التاسع بتاريخ ٥ تشرين الثاني ١٩٦٨